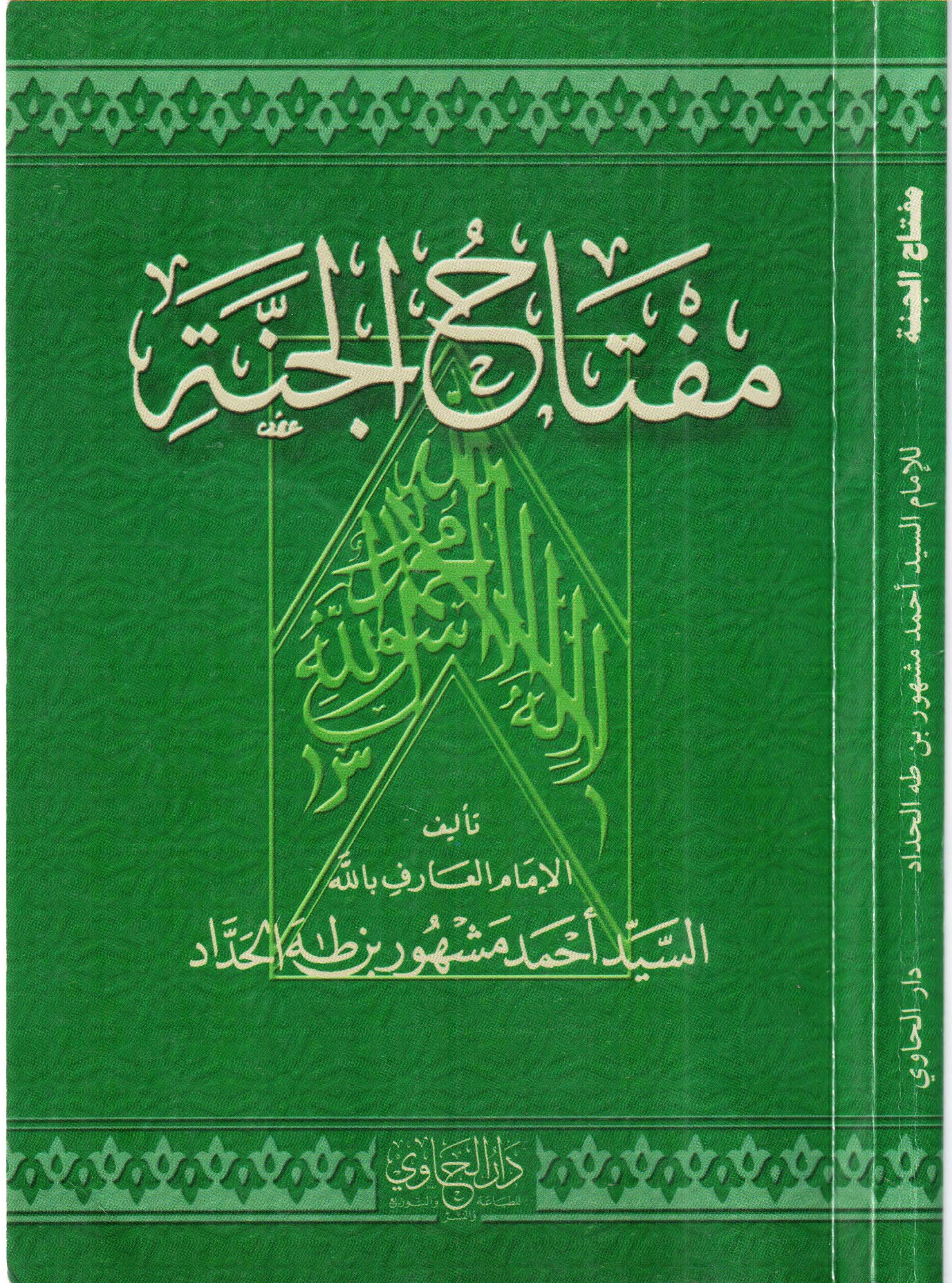

مفتاح الجنة
لا إله إلا الله محمد رسول الله
تأليف
الإمام العارف بالله
السيد أحمد مشهور بن طه الحداد
دار الحاوي
للطباعة والنشر والتوزيع
مفتاح الجنة
للإمام السيد أحمد مشهور بن طه الحداد
دار الحاوي





تأليف

الإمام العارف بالله

السيد أحمد مشهور بن طه الحداد

قدم له مفتي الديار المصرية السابق الشيخ

حسنين محمد مخلوف

رحمه الله تعالى

ترجم للمؤلف وللسادة العلويين المذكورين بالكتاب وخرج أحاديثه

الدكتور مصطفى حسن البدوي





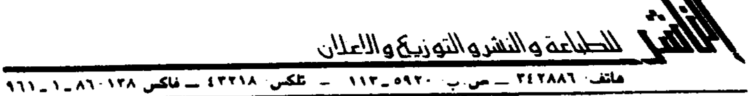
تم طباعة هذا الكتاب
تحت رعاية أبناء المؤلف

الطبعة الثانية

مصححة ومنقحة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

بالتعاون مع



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٩] ، الحمدُ لله الذي أنزلَ الكتابَ ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وأرسل للناس ، رحمة منهُ ومنَّةً ، من قال في حقه ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، وجعل فيهم من وَصَفَهم بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

والصلاة والسلام على المرسل رحمة للعالمين ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، القائل : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجومِ في السماء يُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر . . » الحديث[١] . والقائل : « واللهِ لأن يَهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً

---

(١) رواه أحمد (١٢١٣٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم »[1]

أما بعد : فهذا كتاب « **مفتاح الجنة** » من تأليف السيد الشريف العلامة ، الداعي إلى الله ، الحبيب « **أحمد مشهور بن طه الحداد العلوي الحسيني** » ، وقد كانت الطبعة الأولى منه بالقاهرة عام ١٣٨٩ هجرية / ١٩٦٩ ميلادية . وقدّمَ لها الشيخُ « **حسنين مخلوف** » مفتي الديار المصرية رحمه الله . وتَرْجَمَ للمؤلِّف فيها ولدُهُ السّيدُ « **محمد بن أحمد مشهور** » . ثم صدرت طبعة أخرى على نفس الهيئة سنة ١٣٩٥ هجرية / ١٩٧٥ ميلادية . وها هو الكتاب يطبع الآن للمرة الثالثة ، فنسأل الله تعالى أن ينتشر بين الناس انتشارَه في المرّات الأُولى ، ويعم به النَّفعُ كما عمّ من قبل .

والحبيب « **أحمد مشهور** » من ذلك الفرع المبارك من الشجرة النبوية المطهَّرة المعروف ببني علوي أو السادة العلويين ، الذين استوطنوا « حضرموت »منذ القرن الرابع الهجري . فقد هاجر جدُّهم الإمام « **أحمد بن عيسى** » المعروف **بالمهاجر** من العراق إلى « حضرموت » سنة ٣١٧

---

(١) رواه أبو داود (٣١٧٦) عن سهل بن سعد بن مالك رضي الله عنه .

هجرية ، واستقرَّ بها . واسم السادة العلويين إنما يرجع إلى حفيدِهِ الإمام « **علوي بن عبيد الله بن أحمد** » رضي الله تعالى عنهم .

والإمام « **المهاجر** » يرجع نسبه إلى الإمام « جعفر الصادق » ومنه إلى الإمام الحسين بن علي ، رضي الله عنهم أجمعين . وقد غيَّرتْ هجرةُ الإمام « أحمد بن عيسى » حضرموت من أرض يسودها مذهب الخوارج إلى أرض يسودها مذهبُ أهل السُّنة والجماعة . وظلَّ السادة العلويون من بعده على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري في الأصول ، والإمام الشافعي في الفروع ، حتى يومنا هذا .

وصارت « حضرموت » بهم مهداً للعلم والولاية ، وأرضاً خصبةً نبتت فيها أصولُ هذه الشجرة العلوية ، فأخذتْ تؤتي أُكُلها كل حين ، فخرج منها الطّبقةُ تلو الأخرى من الأئمة الأعلام والعلماء العاملين ، توارثوا علوم النّبوة وتناقلوها ، وانتشروا في الأرض داعين إلى الله ، ورحلوا شرقاً فدخل بفضلهم الإسلام إلى إندونيسيا ، والفلبين ، وماليزيا . ورحلوا غرباً فنشروا الإسلام في كينيا ، وتنزانيا ، وأوغندا ، وجزر القُمُر . وأقام كثيرٌ منهم في هذه البلاد ، أعلاماً للهدى ،

ومدارسَ يتخرج فيها العلماء العاملون ويتربى بها السالكون . تلقَّوا العلوم بالسّند المتَّصل أباً عن جَدٍّ وبثُّوها في الأمة ، وبلغ منهم المراتب العليا من الولاية والمعرفة الجمُّ الغفيرُ . وقد ظلُّوا ـ حتى بداية القرن الحادي عشر ـ يطلق على الأعلام منهم لقبُ « الشّيخ » ، ثم أطلقَ عليهم لقبُ « الحبيب » اقتداءً بجدِّهم الأكبر ﷺ .

وقد ولد الحبيب « **أحمد مشهور بن طه الحداد** » بمدينة « قيدون » بوادي « دوعن » بحضرموت وذلك حوالي سنة ١٣٢٥ هجرية / ١٩٠٧ ميلادية .

وكان والده الحبيب « **طه بن علي الحداد** »[١] من الأولياء الخاملين المستورين . وقد عاش الحبيب طه أكثرَ عمره في إندونيسيا ، وعاد إلى حضرموت في نهاية عمره ، وتوفي بها .

وأما والدة الحبيب « **أحمد المشهور** » فهي الشريفة « **صفية** » بنت الإمام العظيم « **طاهر بن عمر الحداد** »[٢] . وكانت شديدة الملازمة لتلاوة القرآن نظراً وحفظاً ، كما كانت

---

(١) انظر تراجم الأعلام ص١٧٩ .

(٢) انظر تراجم الأعلام ص١٧٧ .

على قدم من العلم والصّلاح . وقد ذكر السيد « **محمد بن أحمد المشهور** » في مقدمته للطبعة الأولى من كتاب والدِهِ طرفاً من أسلوبها في تربية الحبيب « **أحمد مشهور** » ، فقال : « وكانَت أُمّه الصالحةُ السيدة « **صفية** » بنت طاهر بن عمر الحداد المدرسةَ الأُولى له رعايةً ودرايةً ، فقد كانت من الأمهات القلائل اللاتي ضَنَّ الزمنُ بمثلهن علماً وحصانةً وفضلاً . وكانت من التالين للقرآن الكريم كثيراً ، فغذَّتْهُ بلُبَانها وهي تتلوه ، ورعته بتوجيهها وهي تدارسه آياته . وكانت أوَّل من أخذ بسمْعِهِ لترويَ له في أسمَارها قصصَ الذين أدركَتْهم من أئمةِ العلم وأساطين الصَلاح . . . » .

واغتنمت هذه السيدةُ العظيمة وجودَ الإمام الحبيب « **أحمد بن حسن العطاس** » يوماً في جامع قيدون أثناء زيارته لها ، فأرسلتْ ولدَها الحبيب « أحمد » ليصلي وراءَه صلاة الفجر وكان عمره حينئذ حوالي السبع سنوات ، فسمعه وهو يقرأ فاتحة الكتاب وسورة الفجر في الركعة الأولىٰ وبفاتحة الكتاب وسورة الليل في الثانية .

وقد وقر في أذنيه تلاوة الحبيب أحمد المذكور فوعاها واستقرت في ذاكرته وتأثر بها حتى إنه ليحاكيها أحياناً في بعض

صلواته الجهرية . ولهذه الواقعة يَعتَبِرُ الحبيبُ أحمدُ مشهور الحبيبَ « **أحمدَ بن حسن العطاس** » من جمْلة مشايخه . وقد كان جُلُّ أخذ الحبيب « **أحمد مشهور** » في بداياته على الحبيب « **عبد الله بن طاهر الحداد** »[1] ، وأخيه الحبيب « **علوي بن طاهر** »[2] وهما ابنا عمومةِ والدهِ .

وقد درس الحبيب أحمد برباط العلم الذي أقامه السيدان « **عبد الله** » و « **علوي** » بقيدون ، ثم سافر إلى إندونيسيا في صحبة الحبيب علوي بن طاهر . وكان حينذاك دون العشرين من عمره ، والتقى هناك بأكابر القوم من أمثال الحبيب « **علوي بن محمد بن طاهر الحداد** »[3] ، والحبيب « **محمد بن أحمد المحضار** »[4] ، وغيرهما . وقد وجد الحبيب أحمد عند كل من لقيَهُ من الأكابر العنايةَ والرعايةَ والاهتمام ، والبشارات الكثيرة .

وقد مدح الحبيبُ أحمد الحبيبَ « **محمد المحضار** »

---

(١) انظر تراجم الأعلام ص١٧٩ .
(٢) انظر تراجم الأعلام ص١٨٠ .
(٣) انظر تراجم الأعلام ص١٨٠ .
(٤) انظر تراجم الأعلام ص١٨٢ .

بقصيدةٍ في إحدى المناسبات ، فوعده الحبيب محمد بردٍّ على قصيدته ، فلمّا كانت المناسبة التالية أمره بإعادة إلقاء قصيدته ، فألقاها ، ثم ردّ عليه بقصيدة جاء فيها :

وبالمشهور لُقِّبَ وهو أحْرى ... بِهِ والسّر في الأسماءِ سامي
وفي النَّسب الشّريف له رُقِيٌّ ... وبالحدّادِ أكرِمْ من إمامِ
ألا يا أحمدٌ لا زلتَ ترقىٰ ... ذُرَىٰ العلياءِ من فوق السّنامِ
ونلْتَ سعادةَ الدَّارين جمْعاً ... ونادتكَ العنايةُ بالمُرَامِ
وأمطَر أرضَ قلبِكَ ربُّنا من ... سحائبَ جَوْدُها بالجود هامِ
وأحيا ما أُميتَ من المعالي ... وقامت بكَ في ذاك المقامِ
وروحانية من سرِّ طَه ... تمدّك في القعود وفي القيامِ

وكان الحبيب يمكث في (المُكَلاَّ)[1] عند توجهه منها إلى سفر أو عند عودة من سفر ، فيكثر التردد على الحبيب المهاب العارف بالله أحمد بن محسن الهدار رضي الله عنه ؛ بل إنه كان يقصده في أوقات خاصة بقصد الأخذ والتلقي عنه حتى نال منه ما نال مما جعل صاحب الترجمة يعتبره من خاصة مشايخه ، للأخذ عن العارف بالله الحبيب العظيم « أحمد بن

(١) المكلا : مدينة تقع على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية .

محسن الهَدَّار»[1] ، رضي الله عنه . وكان في أخذه عنه أسرارٌ كبيرة جعلت الحبيب أحمد مشهور يعتبر الحبيب الهدار من خاصة مشايخه .

وقد سافر الحبيب أحمد إلى شرق إفريقيا للمرة الأولى سنة ١٣٤٧ هجرية ، فدخل جزيرة « **زَنْجبار** » وكان إمام السادة فيها الحبيب « **عمر بن أحمد بن سميط** »[2] في ذلك الوقت قد سافر إلى جزيرة « مدغشقر » وذلك بعد وفاة والده . وقابل أهلُ زنجبار الحبيبَ أحمد بالمحبة والاحترام ، وجلس يفسر لهم القرآن بالمسجد الجامع في شهر رمضان ، فبدأ بسورة الفاتحة وظل خمسة عشر يوماً يتكلم في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وعاد الحبيب إلى إفريقيا للمرة الثانية سنة ١٣٥١ هجرية في طريقه إلى الحج ، فدخل ميناء كينيا الرئيسي « ممباسا » وسمع أثناء وجوده بها عن الحبيب **صالح بن علوي جمل الليل**[3] ، فعزم على زيارته بجزيرة « لامو » حيث يقيم . وأمر

---

(١) انظر تراجم الأعلام ص١٧٧ .
(٢) انظر تراجم الأعلام ص١٨١ .
(٣) انظر تراجم الأعلام ص١٧٨ .

الحبيب صالح ولَدَه أن يذهب مع طلبة العلم إلى الميناء لاستقبال الحبيب أحمد ، ورحب به الحبيب صالح ودعا له وأجازه وقدّمه ، فصلى بهم صلاة الظهر في مسجد « الرياض » .

وعاد الحبيب إلى (عدن) عازماً على الحج ، ومنها كتب إلى الحبيب « **علوي بن محمد الحداد** » في (إندونيسيا) عن أحوال السواحل ، قائلاً : (وحال السواحل كغيرها في معاناة الأمور والأزمات الحاضرة ، وبالأخصّ أن عُرْبَها ووَطَنِيِّيها ضعافٌ ، وأحرجتهم النصارى في أعمالهم وأحوالهم ، مع عدم المذكِّرين ، وخُفوت صوت الدين ، والهداة الذين كانوا بها رحلوا ، فمآثر آل سميط في (زنجبار) أصبحت قَفْراً . . .) إلى أن قال : (وعلى العَود زرت (لامو) لزيارة الحبيب **صالح بن علوي جمل الليل** من المتعلقين بالحبيب « **علي بن محمد الحبشي** »[1] النائلين منه ، وقد ذكركم ، وهو في الثمانين ، وسراج تلك النواحي . . .) .

ثم عاد الحبيب إلى (إفريقيا) ، واستوطن مدينة

---

(١) انظر تراجم الأعلام ص١٨١ .

(ممباسا) ، وشرع في الدعوة إلى الله ، وكان يخرج إلى الأدغال لدعوة القبائل .

وكان الحبيب أحمد يحظى بعناية ورعاية الحبيب العظيم ، العارف بالله « **عمر بن أحمد بن سميط** » ، وزاره مرات بـ (زَنجبار) و (بجزر القُمُر) ، وجاءه الحبيب عمر مراراً إلى (كينيا) ، وزاره سنة ١٣٧٦ هجرية في (كمبالا) عاصمة (أوغندا) .

وإذا كنا قد ذكرنا بعض مشايخ الحبيب ، فإن إحصاءهم متعذر ، فقد بلغوا العشرات بين مَن أخذ عنهم بنواحي حضرموت وبـ (إندونيسيا) وبـ (الحرمين الشريفين) وبـ (إفريقيا . وقد أشار الحبيب إلى ذلك في قصيدة له ، فقال :

الحَمْدُ لله كَمْ مَغْنًى حَسَوتُ بـه
كَاسَ الطِّلا بينَ آبائي وأعمامِي
وكَمْ قرأتُ زَبُورَ الوُدِّ في مَلأٍ
من عارفينَ وأقطابٍ وأعلامِ
وكَمْ تَجَلّى على سَفْحِ الضَّميرِ سَنَا
فَتحٍ تُضيءُ بِه ذَاتي وأَفهَامي

فَضْلٌ مِنَ اللهِ ما لِي فيه من عَمَلٍ   إلّا ثنائي وشُكْرِي ، طُولَ أعْوَامِي

فقوله : (بين آبائي وأعمامي) إشارة إلى أن جُلَّ أخذه كان عن السادة العلويين من آل الحداد وغيرهم .

وقوله : (من عارفين وأقطاب وأعلامِ) إشارة إلى عُلُوِّ مقاماتهم وشريف أحوالهم .

وقوله : (وكم تجلَّى) . . إلى آخره إشارة إلى ما حصل له من صحبة هؤلاء من عطايا وفتوح . وكان لما ناله الحبيب من هؤلاء السادة ـ من أئمة أهل البيت النبوي الشريف ـ الأثر الكبير في انتشار دعوته في (إفريقيا) ودخول الناس إلى دين الله أفواجاً .

يقول السيد **محمد الحداد** في مقدمته : (وفي إشرافنا على حياته العلمية والعملية في (إفريقيا) الشرقية ، تطالعنا السنونُ الطوالُ ـ التي قضاها ثَمَّةَ ولا يزال حتى الآن ـ بأروع أثر ديني ضخم . إذ بينما نشاهد الزهد والقناعة في حياته التجارية التي كانت مزاولته إياها من باب صيانة العلم والحفاظ على شرفه ليس إلّا ، إذا بنا نجده موزع الأوقات في الطّاعات والعباداتِ وفي الإصلاح الاجتماعي وفي الدروس الهامة الحاشدة ، التي يقوم بها في المساجد ويحضرها العديد من العلماء والمصلحين والطلاب . ولا ننسى بيته الذي كان ندوة يرتادها

الشبابُ من طلاب العلم ، فتتلمَذ على يديه شبابٌ كثير يعد الآن في إفريقيا الشرقية مثالًا للخُلُق والأدب الإسلامي السليم الحكيم . ولقد هدى اللهُ به خلقاً كثيرين فأسلم على يديه الجمُّ الغفيرُ من الوثنيين والمسيحيين ، وقد اشتهر صيتُه في آفاقِ تلك الأقطار ، ورُشِّح أكثر من مرة للقضاء العالي ، فرفضه) .

وقد دخل الحبيب (أوغندا) سنة ١٣٧٥ هجرية / ١٩٥٦ ميلادية ، فوجد فيها كثيراً من القبائل لا دين لها إلّا الوثنية . كما وجد الذين تأثروا بالبعثات التبشيرية ، فدخلوا في النصرانية . ووجد المسلمين من سكّان البلاد وبعض الهنود ، وقليلاً من العرب . كما وجد طوائف أخرى من المارقين من الدين ، كالقاديانية والإسماعيلية . وتصدّى الحبيب لدعوة كل هؤلاء إلى الحق فسافر إلى القُرى وإلى أعماق الأدغال ، حتى أنه وصل إلى بلاد الأقزام في (الكونغو). وحيثما مَرَّ أقبل عليه الناسُ ودخلوا في الإسلام ، وتعلَّموا أصولَ التوحيد ومبادىء الشريعة وأسَّسوا المساجد .

وأثمر إخلاصُ الحبيب في الدعوة وصدقه مع الله ، دخول عشرات الآلاف إلى الإسلام أعانه على ذلك بعض دعاة

المنطقة ممن انخرط معه في سلك الدعوة ، وقد تزاوج هؤلاء منذ ذلك الحين فتضاعف عددهم أضعافاً كثيرة . . هذا عن الوثنيين . أما المتنصرين منهم فكان هذا التنصير غالباً ما يكون صوريّاً ، إذ أن كل ما يطلبه المبشرون من أولئك الذين يغرونهم باعتناق النصرانية مجرَّدُ الاعتراف بعقيدة التثليثِ وألوهية المسيح ، وذلك بدون فهم منهم ولا إدراك ولا التزام بأي شيء من الأعمال ، بعكس الدعاة المسلمين كالحبيب أحمد وغيره ، فإنهم إذا بينوا لهم عقيدة التوحيد فقبلوها منهم ونطقوا بالشهادتين ألزموهم أركان الإسلام الأخرى من صلاة وزكاة وصيام ، وأمروهم بترك الكبائر وبيّنوا لهم الحلال من الحرام في كل صغيرة وكبيرة من حياتهم . وهذا يظهر الفرق بين البعثات التبشيرية التي تقوم بدعوتها بالإمكانيات الضخمة والإمدادات المالية الكبيرة ومساندة الحكومات لها ، وبين الدعاة المسلمين الذين لا يمتلكون من الإمكانيات إلّا أنفسَهم والإخلاص لله ، والذين يأبَوْن إلّا أن يعلِّمُوا من يدخل الإسلام على أيديهم أحكامَ الدّين ، ويلزموهم بها وإن كان ذلك بالتيسير وشيءٍ من التدريج المقبول .

وقد عانى الحبيب أثناء وجوده في أوغندا من عداوة حكومة

« **ملتون أوبوتي** » وحتى في عهد « **عيدي أمين** » المسلم لم تَنْتَهِ المضايقات كُلّيةً. وقد قيض اللهُ للحبيب من يعاونه على الدّعوة إلى الله ، فكان بعضُهم من السادة العلويين ، وبعضُهم من الأفارقة ، وبعضهم من الآسيويين . وحارب الحبيب القاديانية حرباً شديدة ، وناظرهم فهزمهم ودحض حُجَجَهم . وكذلك تصدّى لكثير من الأمور التي كانت في المسلمين مثل اختلاط الرجال بالنساء في المحافل العامة، وعدم التزام النساء باللّباس الشرعي الذي يحافظ على مكانة المرأة المسلمة، وعدم توريث البنات. وتصديً كذلك لأولئك الذين أثرت فيهم الأفكار الغربية من شيوعية وعلمانية وإباحية ، وأرادوا تقليد الغرب تقليداً أعمى . وتصدّى أيضاً لأولئك الذين هم على النقيض الآخر ، وبدعوى المحافظة على الدين ، يكفِّرون المسلمين لأتفه الأسباب، ويفسِّقونهم بلا علم ولا بصيرة . وكذلك وَجَدَ في هذه النواحي من يتصدّى للقضاء والإفتاء بلا علم ولا ورع سعياً وراء الجاه والمال ، ومن يتصدّى للمشيخة والإرشاد وهو غير مؤهَّل لها فيعمل بغير علم فيجر على نفسه إنكار المنكرين ، وقد يتعدى هذا الإنكارُ إلى أهل الاستقامة والصلاح ، فيكون قد تسبَّب في جلب الأذى إلى أهل الله .

وكان الحبيب في (أوغندا) كعهده أينما حلَّ دَئِبَ العمل ، يعظ ويعَلِّم ، ويرشد في المجالس العامة والخاصة وفي خطب الجمعة والدروس اليومية . وقد أخذ الحبيب بحظٍ من لغة أهالي شرق إفريقيا وهي اللغة السواحلية ، وهي مزيج عجيب من العربية واللغات المحلية ، وكثيراً ما يتكلم بها مع أهل هذه النواحي ، كما أنها اللغة المشتركة بينه وبين الهنود . إلّا أنه في المجالس العامة لا ينطق إلّا بالعربيّة لكونها لغة القرآن ، ولغة المصطفى ﷺ ، ولتأكيد أهميتها وشرفها ، وأنه لا غنى عنها ولا بديل ، ثم يقوم أحدهم بترجمة كلام الحبيب من العربية إلى السواحلية .

وقد دعا الحبيبُ طيلة حياته بالكلمة والقدوة الحسنة ، بالقلم حين ألف كتاب « **مفتاح الجنة** » ، فكان فيه إيضاحٌ لما أُبْهِم وَٱلْتبِس ، وميزان توزن به الأمور فيوضع كل منها في مرتبته الحقة ، وجعل فيه نصيباً لكلٍّ من الفئات والمِلَل المذكورة . ففي الثُّلث الأول منه يبيِّن قضايا العقيدة ، فهو موجَّه لغير المسلمين من مشركين ونصارى ، ولمن كان قريبَ عهدٍ بالإسلام ، وكذلك للدعاة الذين يخاطبون هذه الفئات . ويلي ذلك معالجةٌ لكثير من القضايا التي لا تزال إلى يومنا هذا

ـ وبعد مرور حوالي الربع قرن على تأليف الكتاب ـ من قضايا الساعة . ثم في الجزء الأخير من الكتاب أضاف الحبيب البعد الروحي لمن تاقت نفسُه إلى السلوك والترقي ، فاشتمل الكتابُ بذلك على **أركان الدين الثلاثة** وهي **الإسلام والإيمان والإحسان** . ولم تبقَ فئةٌ من الفئات إلّا ووجدت فيه غذاءً للروح والعقل .

وجاء كلُّ ذلك بأُسلوب يجمع جمال العبارة إلى غزارة المعاني ، وفيه من جوامع الكلم ما يشرح الخواطرَ ويمتع العقول ، وذلك مع توخي الاختصار لكي يناسب هذا العصر الذي تكاثرت فيه المشاغلُ والهموم ودواعي الغفلة والتشتيت . والحبيب في هذا على قدم جَدِّه الإمام « **عبد الله الحداد** »[1] رضي الله عنه .

وقد افتتح الحبيب الكتابَ بشهادة التوحيد ، التي هي الركن الأول من أركان الإسلام ، فبيَّن قدرها ومحلها من الدين ، وذكر أسماءَها المتعددة المشيرةَ إلى شرفها ، وعلو شأنها ، واتساع معانيها ، وأنها أصل كل علوم الإسلام ،

---

(١) انظر تراجم الأعلام ص ١٨٠ .

ومركز دائرته ، ومنها يتفرع كل ما يأتي ذكره فيما بعد في الكتاب .

ثم عرّف الحبيب عِلْمَ التوحيد وأُسُسَه ، وبيّن أن الغاية منه ومن سائر العلوم الشرعية إنما هي معرفة الله عز وجل ، ثم تحدّث عن وحدانية الله وقدرته وافتقار جميع ما في الكون إليه ، وبيَّن خطأ المشركين في نسبة القدرة والأفعال إلى ما عبدوه من مخلوق فقير .

وقد عقد الحبيب المقارنة بين التوحيد والشرك ، وأورد الدلائل البديهية والعقلية والنقلية التي توضح حقيقة هذا الأمر . ثم بيَّن في مَبْحَثٍ ممتع كيف أن جميع العلوم الشرعية إنما نبعت وانبثقت من شهادة التوحيد ، وكيف أنها يشترك فيها القلبُ بالتصديق ثم بالإخلاص ، واللسانُ بالإقرار ، والجوارحُ ـ في تصديق ذلك أو تكذيبه ـ بالأعمال ، ثم أكَّد أن الإسلام لا بُدَّ له من الشهادتين . فلا إسلام بدون « محمد رسول الله » ولا توحيد ، ولا قبول للأعمال عند الله عز وجل بدونها . فإذا آمن القلبُ بالله وبوحدانيته وتنزيهه أشرقت عليه أنوارُ هذه العقيدة . وإن آمن بأنّ محمداً رسول الله وجب عليه طاعته ومحبته ، والاقتداء به في كل صغيرة وكبيرة ، فهذه

الشهادةُ تُلْزِمُ الإنسانَ تهذيبَ نفسه ، وتقويم خلقه ، وإلزامه بالسُّنَة المحمدية ، وفي هذه الأمور سعادة الدارين .

وبذكر « لا إلـه إلّا الله » ينتفي من القلب كلُّ أثر للشِّرك سواء الأكبر أو الأصغر ، وهو الرياء . ثم جاء في المبحثين الثالث عشر والرابع عشر بشرح لطيف لمعنى التوسل والوسيلة ، وكيفية اتخاذ الأسباب مع الاعتماد على خالقها ، والفرق بين التأدب مع العلماء والصالحين وما يدعيه بعضُ المتنطِّعين من أنهم يُعْبَدون .

وفي المبحثين الخامس عشر والسادس عشر أوضح ضرورة النطق بالشهادتين سوياً للدخول في الإسلام ، ثم بيّن الأحكام الشرعية المتعلقة بذلك ، وأول ما يجب تعليمه لمن دخل في الإسلام . ثم أورد في المبحث السابع عشر عقيدة الإمام الحداد بتمامها وهي عقيدة اهل السُّنةِ والجماعة التي انعقد عليها إجماعُ العلماء على مرِّ العصور .

وفي المبحث الثامن عشر بيَّن فضائِلَ كلمة الشهادة ، ومقامَها عند الله ، وأنها توصل إلى حُسْن الخاتمة إلّا للذين يتهاونون بالصلاة والزكاة ويتتبعون عورات المسلمين ، وينقصون المكيال والميزان ويخدعونَ المسلمين ، فأولئك

مُعَرَّضُون لسُوءِ الخاتمة .

ثم بَحثَ الحبيب ما ادعاهُ البعضُ من الأخذ بالقرآن فقط دون السنة ، وهي فتنة لا تزالُ بيننا ، ولا يزال الشيطانُ يستزل بها أُناساً جهَّالاً ، اتبعوا الهوى فضلُّوا وأضلُّوا . فبيَّن في المبحث العشرين أن السُّنةَ هي ـ بلا جدال ـ الأصلُ الثاني من أصول التشريع . وفي المبحث الحادي والعشرين تحدَّث عن شروط من يتصدى للإفتاء . وفي المبحث الثاني والعشرين عن فتنة أُخرى من فِتَن الزمان ، وهي قضية ترجمة القرآن الحرفية . وقد حاول أعداءُ الإسلام بها هَدْمَ الدين بهدم أصله وهو القرآن . أما في المبحث الثالث والعشرين فقد تحدَّث الحبيب عما ابتلي به أهل هذا الزمان من التهاون وعدم الاكتراث بالدين ، وعدم تعظيم ما عظَّمه الدين ، ومن علماء السوء والجهلاء يتكلمون في وسائل الإعلام ، وهم مَن سمَّاهم الرسولُ ﷺ بالرويبضة(١) .

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال[حجَّ النَّبِيُّ حُجَّة الوداع ، ثم أخذ بحلقَة باب الكعبة ، فقال : « يا أيها الناس ألا أخبركم بأشراطِ الساعة ؟ » فقام إليه سلمان ، فقال : أخبرنا فِداك أبي وأمي يا رسول الله . قال : « من أشراط الساعة إضاعة المال والميل مع الهوى وتعظيم ربِّ المال » . فقال سلمان : ويكون هذا يا رسول الله؟ قال : « نعم ، والذي نفس محمد =

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سيأتي على الناس سنوات خداعات ، يُصدَّق فيها الكاذب ، وتُكذَّب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويُخوَّنُ فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة » . قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « الرجل التافه يتكلم في أمر العامة »(١) . رواه ابن ماجه .

ثم بيَّن في المباحث الرابع والخامس والسادس والعشرين ، الكفر وكيفيته وأنواعه ، ثم أنواع الشرك الستة ، ثم فتن الإباحية والقاديانية . وفي السابع والثامن والعشرين تحدث عن الإلحاد في الدين ومعناه وأنواعه من تغيير للمعاني وتأويل للآيات وصرف الأحاديث إلى غير معناها ، ومحاولة إنكار المعجزات والخوارق لضيق عقولهم عن تقبلها . وفي المبحث التاسع والعشرين تحدث عن قضية أخرى حيوية من

= بيده . فعند ذلك يا سلمان تكون الزكاة مَغْرَماً والفيء مَغْنَمًا ، ويُصَدَّق الكاذبُ ، ويُكذَّب الصادقُ وَيُؤْتَمَنُ الخائنُ ويُخَوَّنُ الأمينُ ، ويتكلَّمُ الرويْبضة . » قالوا : وما الرويْبضة ؟ قال : « يتكلم في الناس من لم يكن يتكلم وينكرُ الحقَّ تسعةُ أعشارِهم . . . »] الحديث رواه ابن مردويه . وفي رواية : « الرجل التافه يتكلم في أمر العامة » .

(١) متفق عليه .

قضايا الساعة ، ألا وهي التساهل بتكفير المسلمين ، وبيَّن حكم أئمة السلف في ذلك ، ثم أكمل ذلك في المبحثين الثلاثين والواحد والثلاثين بكلمة عن حرمة المسلم عند الله ، ومعنى الحديث النبوي أن : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[1] .

وفي المبحث الثاني والثلاثين شرحَ الحبيبُ المثل الذي ضُرِب في القرآن لكلمة التوحيد بأنها شجرة تُؤْتي أُكُلها كل حين . وأن هذه إنما هي الإمدادات من العوالم العلوية . وكان هذا مؤذناً بانتقاله في المبحث التالي إلى الكلام عن مواجيد أهل الله وصفاتهم . ولمّا كان الوصول إلى رفع الحجُب عن القلب يرتكز على دعامتين هما **الذكر والفكر** فقد تحدث عنهما بشيء من التفصيل ، وكذلك تحدث عن مجاهدة النفس التي هي الجهاد الأكبر ، وأورد مبحثاً شيِّقاً في معاني **الشريعة والحقيقة** للإمام « **أبي بكر بن عبد الله العيدروس** »[2] رضي الله عنه ، وأتبع ذلك بذكر الكتب المطلوب الإطلاع عليها لمن كان له تشوق إلى مثل هذه الأمور .

---

(١) رواه البخاري (٤٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) انظر تراجم الأعلام ص ١٧٧ .

ثم شرح الحبيبُ الاسمَ الأعظمَ الجامع وهو « الله » وأعقب شرحه لأنواع الذكر بنبذة عن ذكر العارفين تشويقاً للسالكين . ثم ناقش قضية إنشاد الشعر في المجالس الدينية ، وانتقل من ذلك إلى ذكر الشيخ المربِّي وصفاته وكيفية التعرف عليه . وهو مبحث ثمين في هذا الزمان الذي كثرت فيه الدعاوى الكاذبة . ثم أكَّدَ على وجوب النصيحة لكل مسلم وتفصيل ذلك ، ولما كان كلامه عن مجاهدة النفس يمكن في مثل هذا الزمان أن يُسَاء فهمهُ أو يساء الظنُّ به على أنه دعوة إلى السلبية ، وتركِ الجهاد ، ختم الكتاب بمبحث عن الجهاد في سبيل الله وأنه قائم إلى يوم الساعة وأن الأعداء متربصون بالإسلام والمسلمين ، كما هو ظاهر ، فلا عذر لأُولِي الأمر في التقاعس والتقصير . فالجهاد فرضٌ وحقٌ ، والتهاون فيه لا يمكن أن يؤدي إلّا إلى تداعي الأمم عليهم وإلى تمزيق شمل المسلمين والاستيلاء على أرضهم ، وفَرْضِ ما هم عليه من ضلال وفجور[1] .

---

(١) رواه أحمد (٢١٣٦٣) وأبو داود (٣٧٤٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن تدَاعَى عليكم الأمم من كل أفق كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ على قصعتها » ، قال : قلنا : يا رسول الله أمن قلة بنا =

وقد جاء كتاب « مفتاح الجنة » على هذه الصورة فيه إيقاظ للنائمين ، وتعليم للجاهلين ، وتنبيه للغافلين ، من علماء وعوام ورؤساء ومرؤوسين . وفيه مناظرة الحبيب للقاديانية وجهاده لإعلاء كلمة الدين مصداقاً لحديث رسول الله : « يحمل هذا العلم من كل خَلَف عُدُولُه : ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »(١) .

وقد عاد الحبيب إلى كينيا عام ١٣٨٩ هجرية / ١٩٦٩ ميلادية من أوغندا ولبث فيها على عاداته من ترتيب الدروس وحضور المجالس العامة والسفر إلى القرى لدعوة أهلها إلى الإسلام .

وكان الحبيب يحج كل عام منذ بداية الثمانينات الهجرية وحتى عام ١٤١٥هـ وهي آخر حجة . وقد سافر في شبابه إلى الحبشة والصومال ، وله رحلتان إلى مصر : الأولى سنة

= يومئذ ؟ قال : « أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن » ، قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : « حب الحياة وكراهية الموت » .

(١) رواه أحمد عن عليٍّ والحاكم وابن عساكر عن أسامة بن زيد رضي الله عنهم .

١٩٧٠ ميلادية للعلاج ولإجراء بعض العمليات الجراحية ، والثانية بعدها بحوالي ثلاث سنوات ، حينما بلغه أن الحبيب « **عمر بن أحمد بن سميط** » قد سافر إلى مصر ، فعزم على اللحوق به هناك . وللحبيب رحلة إلى إندونيسيا وسنغافورة ورحلات عديدة إلى جزر القمر ، وتنزانيا ، وزنجبار ، وقد زار أيضاً عمان والإمارات .

ولقد كان أول ما أخذ بقلوبنا وعقولنا لَمَّا أكرمنا الله بلقاء الحبيب « **أحمد مشهور** » أن أحواله وأفعاله كلها تجري على سنة جده ﷺ فهو بلا شك ممن قال عنهم رسول الله ﷺ : « خيارُكم الذِّين إذا رؤوا ذُكِرَ اللهُ »[١] .

وهو قليل الكلام كثير الفكرة ، جُلّ ضحكه التبسم ، يكلم كلاًّ على قدر عقله ، يأخذ بخواطر الناس ويلاطفهم ويتكلف جهد الجلوس إليهم ، مع ما به من مرض . لا يتكلم أحد بمجلسه بغيبة ولا نميمة ولا رذيلة ، إذا نظرت إليه في مجلسه ومأكله ومشربه وحركاته وسكناته ذكرت النبي ﷺ . ونشهد أَنَّا ما رأيناه قط إلّا على الوصف الذي وصفه الإمام « **الحداد** »

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٩) عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها .

حينَمَا قال : « العارف مقَامُه الهيبةُ ، وأحوالهُ الملجأ إلى الله ، وصفتُهُ الرجُوع إلَى الله ، والابتهال على الدوام ، والإلحاح في الدعاء ، والتضرع ، والخشوع ، ورؤية العجز » . وقد كان الحبيب حال وجوده في جدة لا يترك جمعة في صيف ولا في شتاء ، في مواسم الحج وفي غيرها إلّا ويخرج إلى الحرم المكي للصلاة ، تعظيماً لشعائر الله . ويجيب كل من دعاه كائناً من كان ، فقد رأيناه يحضر ـ في اليوم الواحد ـ دعوة على طعام الغداء في أحد المنازل ، وعقدَ نكاح في مكان آخر ، ومجلساً بعد المغرب في مكان ثالثٍ . ولم يزل الحبيب مهتمّاً بأمور المسلمين ، فكان يهتم بأحوالهم الاجتماعية والسياسية في إفريقيا ويشارك في الانتخابات بالنُّصْح والإرشاد والقصائد البناءة .

ورأيناه أثناء أزمة « الكويت » يكثر من الدعاء والابتهال إلى الله برفع العناء عن المسلمين ، وكذلك يدعو لأهل « الصومال » وغيرها من بلاد المسلمين المبتلاة وذلك مع دعواته اليومية للأمة بأسرها بصلاح حالها في دينها ودنياها . وكان لاتساع أفق الحبيب ، وكثرة أسفاره ولقائه بالعلماء وغيرهم من جميع أقطار الأرض ، واهتمامه الدائم بأمور

المسلمين ، الأثَرُ البالغُ في كون معالجتة لمشاكل الأمة مبنية على دراية تامة وممارسة للأمور ، فكان ذلك ـ مع تمكنه من العلوم الشرعية ـ سبباً في تمكنه من معالجة هذا العدد الكبير من قضايا العصر بمثل هذا الوضوح ، وهذا الاختصار .

وبعد عمر مديد وهو متمتع بحواسّه الكاملة ، وإثر عارض لم يمهله طويلاً انتقل الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد ، رضي الله عنه ، إلى رحمة الله تعالى بمدينة جدة من أرض الحجاز ، عصر يوم الأربعاء الرابع عشر من رجب سنة ١٤١٦هـ ، الموافق السادس من ديسمبر سنة ١٩٩٦م ، ودفن بحوطة السادة العلويين بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة ، وذلك بعد صدور هذه الطبعة من « مفتاح الجنة » بأشهر قليلة .

جزاه الله عنا وعن هذه الأمة خير الجزاء ، وأسكنه الفردوس الأعلى ، وألحقه بالنبيِّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وأسلافه من السادة العلويين ، وحسن أولئك رفيقا .

وقد تُرْجِمَ كتاب « **مفتاح الجنة** » إلى اللغة الإنجليزية ، ونُشِرَ في بريطانيا ، وأقبل عليه خلقٌ كثير من المسلمين وغير المسلمين ؛ لما فيه من دلائل التوحيد وإيضاح للقضايا

العصرية . وترجم أيضاً إلى اللغة الألمانية وتم نشره ، وإلى اللغة الأُردية وهذه الترجمة طبعت بالباكستان .

ولقد كان لوجود الحبيب « **أحمد** » مساهمة كبيرة في انتشار كتب الإمام « **عبد الله الحداد** » وإعادة طباعتها ، المرة تلو الأخرى ، وترجمتها إلى لغاتٍ كثيرة . وانتشارها في مشارق الأرض ومغاربها ، فهذا الانتشار لعلوم الحدَّاد أوضح دليل على وراثة الحبيب أحمد للخلافة الحدادية ، وظهوره بكامل مظهرها . ومن مظاهر هذه الخلافة ازدهارُ طريقة « **أهْل اليمين** » على يديه في هذا العصر ، وهي الطريقة التي أسسها الإمامُ « الحداد » ، وعندما سُئل عنها رضي الله عنه ، أجاب قائلاً : « يعملُ على ما نحنُ عليه ، فما يرانا نفعلُهُ يفعله ، كما ترى من إقامة الصلوات وقراءة القرآن ، وترتيب الأذكار ، وطلب العلوم النافعة ، مع الدوام على ذلك . . » . أي : أنها طريقة ليس فيها الخلوات والمجاهدات العظيمة التي كانت دأبُ القرونِ السابقةِ ، فهي الطريقة السهلة التي يستطيعها كل أحد ، والمنَاسِبَةُ لهذه الأزمنة .

وقد منَّ اللهُ علينا بشرف التقديم لهذه الطبعة ، وتخريج أحاديثها وإضافة تراجِمَ مختصرةٍ للسادة العلويين المذكورين

فيها . فنسأل الله أن يقبل عملنا على ما فيه ، ويتمم لنا نورَنَا ويحشرنا في زمرة السادة الكرام ، فإنه أهل لذلك والقادر عليه ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وآلِهِ وصحبه وسلم ، والحمد لله ربِّ العالمين .

مصطفى حسن البدوي
المدينة المنورة
في ٢٢ ذو الحجة ١٤١٣ هجرية
الموافق ١٢ يونية ١٩٩٣ ميلادية

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله الأكرمين وأصحابه البررة وجميع التابعين ، وبعد ، فهذا « **مفتاح الجنة** » يقدمه الأخ العلامة الجليل الداعي إلى الله الحبيب السيد**أحمد مشهور الحداد** ، إلى إخوانه المسلمين ، رجاء أن يفتح الله به أبواب جنة النعيم ، لمن يتقبله بقلب سليم ، وينهض بالدعوة إلى الله على نهجه القويم .

ألمَّ صديقنا السيد الفاضل في هذه الرسالة الوجيزة بمباحث هامة تتعلق بكلمتَيِّ الشهادة اللَّتين بهما النجاة والسعادة في الآخرة والأولى ، وهي من أهم مباحث أصول الدين ، التي لا غنى عن معرفتها لمن يبغي أن يقوم مقامَ صدق في الدعوة إلى الحق وإلى سبيل المؤمنين ، مع ما اقتضته المناسبة من آراء وبحوث ، وتنبيه وإرشاد وتحذير ؛ ثمرة علم ودراسة وتجارب ، فأوضح وأسهب ، وأشار وألمع ، في بيان صادق وأسلوب رصين ، أمتع الله به ، ونفع بآثاره ، وأثابه

على ما أسدى من الخير للإسلام والمسلمين ، نعيماً خالداً في جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وإن الله لمع المحسنين .

كتبه / حسنين محمد مخلوف

١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٨٩ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، هادي الحائرين ، وواصِلِ المنقطعين ، وبه نستعين على أمور الدنيا والدين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الصادق الأمين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد . .

فهذه رسالة وجيزة في التنبيه على ما اشتملت عليه (**كلمة التوحيد والشهادة**) من علوم ، ودلَّتْ عليه من أعمالٍ ورسوم . أقدِّمُها إلى قرائي المتعطشين إلى فهم حقائق الدين ، آملاً أن تحل من قلوبهم محل الرضا والقبول ، وتَبُلَّ منهم صدى التلهُّف إلى ذلك المنهل المعسول . وسميتها « **مفتاح الجنة** » رجاء أن تفتح لمن يعتقدها ويعمل بمضمونها أبواب جنة الرضوان والخلود .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٢] .

وضمَّنتها ـ على قصوري وتقصيري ـ ما يجب على

المكلَّف معرفته من معاني التوحيد وثمراته ، وما زخَرت به كلمة الشهادة من علوم ومعارف ، وإشارات وأعمال مع استطراد في بعض الأحيان ـ اقتضاهُ الحال ومسَّتْ إليه الحاجَةُ ـ إلى مباحث هامةٍ تبصرةً وتنويراً ؛ فإن أصبت المَحَزَّ فمن فضل الله الجواد ، وإن زللت فالرجاء أن لا أحرم ثواب الاجتهاد ، [وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى] والله المسؤول، في الإعانة والقبول .



١ ـ كلمة التوحيد ومعناها

« لاإلـه إلا الله » : جملة جليلة في معناها ، مختصرة في مبناها ، عظيمة في أثرها ، مشرِّفة في قدرها ، مشرقة في نورها ، فريدة في فضلها . أربع كلمات بها قامت الملَّة ، وعليها وضعت القبلة ، وبها جاء كل كتاب أنزله الله على كل رسول من رسله الكرام ، وبها النجاة من النيران ، والفوز بالنعيم الخالد في الجنان .

قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] .

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه : ١٤] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وقال أيضاً : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه : ٨] .

وقال أيضاً : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وبصحة الاعتقاد واليقين بمعناها ، والإذعان به . . يتحقق الإيمان . وعلى أساس النطق بها صدقاً ، والعمل بمقتضاها حقّاً . . يقوم الإسلام .

وبالجمع بين صحة الاعتقاد والاستسلام لحكمها والانقياد . . تشرق في القلوب حقيقة الإحسان .

وكما تسمى كلمة التوحيد تسمى : « كلمةَ الشَّهادة » و « كلمةَ الإخْلاَص » و « كلمةَ الحقِّ » و « كلمةَ الصِّدق » و « كلمةَ العهْد » و « كلمةَ الإيمان » و « كلمةَ التَّقْوَى » و « الكلمةَ الطَّيبة » و « الكلمةَ البَاقِية » و « كلمةَ الله العُلْيا » و « كلمةَ الشَّفاعةِ » و « ثَمَنَ الجنَّة » و « مفْتَاحَ الجَنَّة » .

وهي أول ما يَدخُل به العبدُ في دين الإسلام ، وآخرُ ما يخرجُ به من الدنيا إلى الجنة والنعيم المقيم ؛ كما في حديث : « من كان آخر كلامه في الدنيا لا إلـه إلا الله . . دخل الجنة »[1] . فهي أول واجب وآخر واجب .

فمن قالها موقناً بها ومات مصرّاً عليها . . سَعِد بدخول

---

(1) رواه أبو داود(٢٧٠٩) وأحمد (٢١١١٠) ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

الجنة كما في الحديث ، ومن استكبر عنها جحوداً أو إشراكاً . . دخل النار وبئس القرار .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧٣] .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

ومعنى (لا إلـه إلا الله) لا معبود بحقٍّ إلَّا الله ، و « اللهُ » عَلَم على الذات الأقدس ، الواجب الوجود ، المتصف بجميع صفات الكمال والجلال ، المنزَّه عن جميع سمات الحدوث ، وعن الشريك والنظير والمثال ، وعما لا يليق بمجده وعظمته من الصفات والأحوال ، فهو الإلـه الواحد الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفُواً أحد ، لا إلـه إلا هو سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

* * *

٢ ـ العلم الباحث في معناها وأَدلَّتها

ويندرج كل هذا الذي ذكرناه إجمالا ، وما ذكره أئمة علم التوحيد في كتبهم تفصيلاً في معنى هذه الكلمة المشرَّفة .

وقد تكفَّلَتْ ببيان ذلك كله وإثباته بالبراهين القطعية آياتُ الذِّكر الحكيم وأحاديثُ النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، ومنهما استمدَّ علماء فنِّ التوحيد مباحثه في باب الإلـٰهيات والنبوات والسمعيات ، وأفاضوا في ذلك إفاضة تشفي الصدور وتملأ القلوب بالنور ، وسَمَّوه (**علم التوحيد**) و (**علم العقائد**) و (**علم أصول الدين**) .

ولهذا العلم الصدارة في ميدان العلوم وعليه المعوَّل ، وبنوره اهتدى المؤمنون ومن معينه ارتوى العارفون . وهو وعلوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والتصوف من العلوم الشرعية التي لا يستغني عنها طلاَّب العلم والعرفان . ومَنْ عَلِمَ القَدْرَ الواجبَ معرفته منها كان على بيِّنةٍ من أمره ، وبصيرةٍ في دينه ، وكان من الفالحين .

ولا شك أن أساس ذلك كله معرفةُ الواحد الأحد جلَّ جلاله ، واليقينُ بوحدانيته وسائر صفاته العليَّة وأسمائه الحُسْنَى وبتنزُّهه عما لا يليق بجلاله . وهذه المعرفة هي الغاية القصوى والمنهل الأصفى ويُعَبَّرُ عنها برسوخ الإيمان في القلب .

والإيمان : نور يقذفه الله في قلب عبده ، تشرق به زجاجته فيرى ما شاء الله أن يرى من مكنونات العلوم والأسرار ، كأنه عَيانٌ ومشاهدة ، فينشأ ـ عن ذلك ـ التَّبَتُّلُ إلى الله تعالى ، والإخلاص له ، والطمأنينة بذِكْرِه ، والخوفُ منه ، والرجاء فيه ، والتحلي بالأخلاق الكريمة ، والتخلي عن الأخلاق الذميمة ، والإقبال على الطاعات ، والانكفاف عن المعاصي والسيئات ، والفوز بقربه تعالى ورضاه ، وتلك هي السعادة العظمى .

* * *

٣ ـ الإلـه الحق هو الله تعالىٰ وحده

والإلـه الحق هو الله تعالى الواجب الوجود ، الخالق البارىء المصوِّر الرزَّاق المحيي المميت المدبِّر الحكيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، وأبدع كل شيء صنعه ، وأحكم كل أمر دبَّره ، وقضى كل شيء قدَّره ، فهو وحده الإلـه الحق الأزلي الأبدي ، المستحق للعبادة ظاهراً وباطناً ، المنزَّه عن كل نقص ، له الصفات العليا والأسماءُ الحسنى والعظمة والجلال ، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا إلـه سواه ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النساء : ١٧١] ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المؤمنون : ١١٦] ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [فاطر : ٣] ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة : ٥] ﴿ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٦] ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧] .

* * *

٤ ـ افتقار الكائنات كلِّها إلى الله

وجميع الكائنات تنادي على نفسها بالعجز والافتقار إلى الله تعالى القويِّ القادر في وجودها وبقائها وجميع شؤونها، وتشهد بلسان حالها أنه تعالى الإلـٰه الحق رب العالمين، لا شريك له في أُلوهيته وربوبيته، ولا في صفاته وأفعاله، ولا في الخلق والإيجاد، ولا في الإحكام والتدبير، بَلِ الله وحده هو الخالق والمهيمن والقادر والمدبِّر والفاعلُ المُخْتَارُ الحكيم، جلَّتْ قدرتُه، وعَظُمَتْ مِنَّتُه، وسَمَتْ حكمتهُ، ودلَّت عليها صنعتهُ القائمة على نواميس محكمة وأحكام مقدَّرة، والتي أبدعها كلها بيد قدرته على أتم حال، وأكمل نظام. فمصنوعاته الفاخرة، ومخلوقاته الباهرة، ومبدعاته الزاهرة التي ملأ بها أرضَهُ وسمواتِهِ ناطقة بقدرته ووحدانيته وعظمته وجلاله وعلمه القديم، شاهدة له سبحانه بالتدبير الحكيم.

وقد أحسن من قال:

فوَاعَجَباً كيف يُعصَى الإلهُ أَمْ كيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَلله في كُلِّ تحريكةٍ وتَسْكينَةٍ أَثَرٌ شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ علَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وهذه الآيةُ الدَّالةُ على وحدانيته هي وجودُ كل شيءٍ على حالةٍ تؤذن بالافتقار - وجوداً وبقاءً - إلى مَن صنعه على تلك الهيئة ، وفطَرَهُ على تلك الفطرة التي تجري على أحسن تقدير ، لم تتشعب به إرادات مختلفة ، قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] وقال : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] وقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٢] .

* * *

٥ ـ جهل المشركين وضلالهم

وما زعم الألوهية أوالربوبية أحدٌ من خلق الله كالأحمقين اللعينين « **النمرود** » و « **فرعون** » ، ولا زعمها زاعم لكائن من الخلق كالكواكب والأحجار والحيوان وغيرها ، إلا وآثار النقص والعجز والافتقار والحدوث والانقهار ظاهرة على الزَّاعم لها من الآدميين ، وعلى من أُدُّعِيَتْ له غيرهم . ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابر أحمق .

فما أعظم فرية المشركين وأخف عقولهم ، وأجهلهم بعظمة ربهم الذي خلقهم فسوَّاهم ـ يجعلون له شريكاً في الألوهية والربوبية والملك والعظمة والتصرف في الكون وتدبيره ـ عبداً مخلوقاً عاجزاً ضعيفاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ثم يعبدونه من دون الله ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ١١٧ ـ ١١٨] ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٧] ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ [يوسف : ٤٠] ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ ﴾ [فاطر : ١٤] ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٧٢ ـ ٧٣] .

كيف والكائنات بأسرها من حيوان ونبات وجماد وسماء وأرض وما فيهما يراها أولئك الجاحدون بأعينهم عاجزة مقهورة في أمور أنفسها ، فضلاً عن أمور غيرها ، لا تقدر على شيء ، ثم يعبدونها ، ولكنهم عموا وصموا عن الحق واتبعوا أهواءَهم فضلُّوا السبيل ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

وقد كشف الله عن ضلال المشركين في عبادتهم الأصنام بمَثَلٍ بليغ ضربه ، وأمرهم بالتبصُّر فيه ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣ ـ ٧٤] .

والذباب مخلوق ـ مع صغره وضعفه ـ يحتوي على رأس وعينين وجناحين وأعضاء وقوى على غاية من الدقة والإحكام ، ويتدرج في نموه ويتوالد ويمضي في الهواء في كل اتجاه ، ويتغذى بما يسطو عليه من الغذاء . فهو من دلائل إبداع صنع الله وقدرته الباهرة .

ولما عبد المشركون الأصنام من دون الله أظهر الله عَوارهم وفساد عقولهم وفاحش جهلهم ، بمثل ضربه لهم فقال ما معناه : إن هذه الأصنام التي تعبدونها بالغة من العجز والضعف مبلغاً يستحيل معه أن تخلق ذباباً على ضعفه وحقارته ولو اجتمعت وتعاونت على خلقه ، وذلك ما لا يمكن إنكاره ، فكيف تعبدونها والعبادة إنما تكون للإلـٰه القادر على الخلق والإيجاد ؟ ومن بالغ عجزها أنها لا تستطيع أن تستنقذ من الذباب الحقير الضعيف ما يسلبه منها من الطِّيْب والعسل اللذين تُضمَّخ بهما تكرمة لها من عَبَدَتِها الجاهلين ، ولا أن تنتصف منه لنفسها ، فكيف تشركونها مع الله وتعبدونها مع هذا العجز الفاضح عن الانتصاف من أضعف خلق الله . ﴿ ضَعُفَ الطَّالبُ ﴾ لما سُلِبَ منه وهو الأصنام ﴿ والمَطْلُوبُ ﴾ منه رد المسلوب وهو الذباب ﴿ مَا قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه ﴾ ما عرفوه

حق معرفته ، وما عظَّموه حق تعظيمه ، وما وصفوه حق وصفه ، حيث أشركوا به أصناماً عاجزة أشد العجز عن الانتصاف لنفسها من أضعف الخلق وأحقره ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ قادر غالب فهو الحقيق بالعبادة وحده لا شريك له . فكيف تتخذون العاجز المغلوب المقهور شبيهاً له ومعبوداً مثله ؟

وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل : [**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرَّةً أو ليخلقوا حبَّةً أو شعيرةً**][1] .

* * *

(١) رواه البخاري (٧٠٠٤) ومسلم (٣٩٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

٦ ـ دلالة الكائنات على القدرة الإلـٰهية

ولقد أثبت العلم الصحيح والبراهين القاطعة أنَّ الكون كله ، علويَّهُ وسُفليَّهُ ، ناطقهُ وصامتهُ ، مترابط الأجزاء ، متناسق التركيب ، متفاعل القوى لو انحرفت ذرة واحدة منه عن سَنَنها ـ الذي رسم لها والذي خلقتْ من أجله ـ قِيد شعرة لاختلَّ نظام العالم ، وتناثر عِقد إحكامه ، ووقعت السموات على الأرض ! فالعوالم كلها لا تزال وستظل متماسكة مترابطة متجاذبة ، تؤدي وظائفها التي خلقتْ لأجلها على أتمِّ نظام وتدبير وإحكام إلى الوقت الموعود .

فمَنِ الخالق لكلّ ذلك ؟ ومَن هو واهب هذه القوى العظيمة ؟ ومن هو المحرِّك للأفلاك في السموات ، والمُجري لها في مداراتها ، والحافظ لسيرها ونظامها ، والقائم بتدبيرها منذ وُجد العالم ، ومَنِ الممسك للسموات أن تقع على الأرض ؟ ومَن هو المجري للفُلك في البحار وللسحاب في الأجواء ، والمدبِّر للكائنات الأرضية كلها ، والحفيظ على

ما اشتملت عليه السموات والأرض من أفلاك ونجوم نيِّرات ، وأمم مختلفة الأجناس واللغات والطبائع ، ومصنوعات بديعة الصنع محكمة التدبير تؤدي وظائفها بإحكام طوال الدهور !؟ أليس هو الله رب العالمين ، العليم القدير المدبّر الحكيم ، مالك الملك كله ، بلا شريك ولا مُعين ؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج : ٦٥] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] لا إلـه إلا هو سبحانه .

وكذلك أودع الله تعالى في الإنسان والحيوان من سرِّ الحياة والتكوين ما لا يقدر عليه سواه . وإذا حاول أمهر المصوّرين والصانعين محاكاة شيء منهما فلن يكون إلا في الصورة فقط . أما بَعْثُ الحياة والاستعداد للنمو والحركة فلن يستطيعه أحد من الخلق ، وإنما هو الله وحده سبحانه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وكذلك جميع الخواص والمنافع التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته كما علم وأراد ، لن يستطيع أحد من الخلق إيجاد خاصة منها لشيء لم يرد الله أن تكون له : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة : ٧١ ـ ٧٣] فهل للشركاء الذين أقامهم المشركون للعبادة من دون الله قدرة على شيء من ذلك ؟ كلا ، بل هو الله العزيز الحكيم ، لا رب سواه ولا معبود إلا إياه .

* * *

٧ ـ تسبيح الكائنات بحمده تعالى

وكذلك كل ما في الوجود ناطق بلسان حاله بقدرته تعالى ووحدانيته وحكمته وتدبيره في صنعه ، بافتقاره إليه في وجوده وكينونته وبقائه ، ناطق بحمده تعالى على ما أفاض من نعمه وإحسانه وجوده وكرمه سبحانه ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ [الإسراء : ٤٤] لأنه ليس تسبيحاً بالجارحة بل بلسان الحال ، وهو أفصح وأصدق في هذا البيان ، لا يحتمل كذباً ولا رياءً ولا تأويلاً ، بل قال بعض المحققين : إنه تسبيح حقيقة بنطق وبيان . وقد أقدر الله بعضَ أصفياءِ عباده على فهم تسبيح بعض الحيوان والجماد كـ « **داود** » و « **سليمان** » و « **محمد** » عليهم الصلاة والسلام . قال رسول الله ﷺ : « لما استقبلني جبريل عليه السلام بالرسالة ، جعلتُ لا أمرُّ بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله »[1] . وقال ابن مسعود رضي الله

---

(١) رواه البزار (٢٣٧٣) وأبو نعيم في « دلائل النبوة » عن عائشة رضي الله عنها .

عنه : « كنّا نأكل مع رسول الله ﷺ ونحن نسمع تسبيح الطعام »[1] . وقال أنس رضي الله عنه : « أخذ النبي ﷺ كفاً من حصى ، فسبَّحن في يده حتى سمعتُ التسبيح ، ثم صبَّهن في يد أبي بكر فسبحن ، ثم في أيدينا فما سبَّحْن »[2] . وقال تعالى في شأن داود عليه السلام : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص : ١٨] وقال : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ﴾ [سبأ : ١٠] أي : سبِّحي معه فكان إذا تخلَّل الجبال وسبَّح تُجاوِبُهُ بالتسبيح على نحو ما يسبِّح .

وكلام النمل لسليمان عليه السلام منصوص في القرآن بصورة واضحة لا تدع مجالًا للشك أو التأويل . فتبارك الله أحسن الخالقين ، وجلَّ أن تناله الظنون والأوهام وهو الملك المتعال ، أو تحيط به الجهات وهي من خلقه ، أو تعتريه سمات الحادثات وهي محل التغيير والفناء ، أو يشركه أحد في ذاته أو صفاته أو أفعاله . وهو المنفرد بالوحدانية في كل ذلك ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٦٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه ، وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط ، والبزار والبيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه .

٨ ـ كلمة التوحيد وحقها على العباد

ٱعلم أيها الأخ أنَّ جميع العلوم الدينية ووسائلها ترجع إلى شرح هذه الكلمة المشرَّفة ، وبيان حقها على العباد ، وما يتبعه من أمور العبادات والمعاملات ، اعتقاداً وقولًا وعملاً ، وقد تقدم شرح معناها .

أما حقها فاعلم أنه التصديق بمعناها تصديقاً يقينياً ، والإقرار بها إقراراً صادقاً ، والخضوع للألوهية خضوعاً كاملاً بالتزام العبادة والطاعة ، والانقياد لجميع الأوامر والنواهي . فيشترك في القيام بحقها القلب واللسان والجوارح . وهي في جملتها ميثاق بين العبد وربِّه على القيام بحقها ، والتزامٌ من العبد بذلك ـ ما دام في الدنيا ـ طمعاً في النجاة والفوز في الآخرة إذا أوْفَى به .

وقد قيل لوهب بن منبه : أليس مفتاح الجنة لا إلٰه إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن لكل مفتاح أسنان لا يفتح إلا بها . ومن أسنانه : لسان طاهر من الكذب والغِيبة ، وقلب خاشع

طاهر من الحسد والخيانة ، طاهر من الحرام والشبهة ، وجوارح مشغولة بالخدمة طاهرة من الآثام ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] فمن صدَّق بها بجَنانه وأقرَّ بها بلسانه وقام بموجبها بجوارحه ، سَعِدَ في دنياه وآخرته وكان مؤمناً حقاً ومسلماً صدقاً ومن لم يصدِّق بها بقلبه فهو كافر مخلَّد في النار . ومن صدَّق بها بقلبه وأقرَّ بها بلسانه ولكنه لم يقم بموجبها بجوارحه فهو مؤمن عاصٍ يعذَّب على عصيانه ما شاء الله أن يعذَّب ، ولا يخلَّد في النار .

ومن ثمرات التصديق القلبي والإقرار اللساني بهذه الكلمة المشرفة أن العبد لو عاش طول عمره جاحداً وحدانية الرب تعالى وعظمته وجلاله وقدرته ، يعبد الصنم ويخضع للوثن ، ثم قالها مؤمناً مقرَّاً بها ، عصم ماله ودمه ، وخرج من ذنوبه وآثامه كيوم ولدتْه أمه ؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله ، والتوبة تمحو الذنوب . وفي الحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله »[١] . وحق

(١) رواه البخاري (٢٤) ومسلم (٣٣) ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

الإسلام ما شرعه الله من القصاص والحدود ، فلا تمنع كلمة الشهادة قائلها ، بعد أن التزم بأحكامها ، من إقامة الحد عليه قتلاً أو قطعاً أو تعزيراً ، إذا فعل ما يوجبه من قتلٍ أو زنًى أو سرقة أو إضرار ، فذلك حق الإسلام .

وإنما قال ﷺ : « وحسابهم على الله » لأن الإقرار ظاهر ، والتصديق والإذعان في السرائر ، ولا يطَّلع عليهما إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ولم نؤمر بالتنقيب عن القلوب ، وإنما أمرنا بالعمل بالظاهر ، رحمة من رب العالمين .

* * *

٩ ـ توقف الإسلام على الجمع بين الشهادتين

إنَّ جميع الأحكام المترتبة على هذه الكلمة الطيبة في الدنيا والآخرة لا يظفر بها إلَّا من جمع بين الشهادة بها والشهادة بالنبوة والرسالة لخاتِم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فمن أقرَّ بشهادة التوحيد لله تعالى ، وأنكر الشهادة بالرسالة له صلى الله عليه وآله وسلم ، فليس من أهل التوحيد ، بل هو كافر بالله كالذي ينكر التوحيد ، مكذب لخبر الله عن رسوله ولأمره بالشهادة له بالرسالة وبطاعتهِ واتِّباعه وسلوك طريقه ، وتحذيره تعالى من مخالفة أمره . قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦] ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ [آل عمران : ٣١] ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن

﴿تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٣] إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب .

ولا تتم الشهادة بالرسالة لمحمد ﷺ حتى يعتقد عمومها إلى كافة الخلق من العرب والعجم والإنس والجن ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] فمن نفى عموم رسالته ﷺ ، أو قال : إنه رسول إلى العرب خاصة فقد كفر ، لِمَا سمعتَ من الآيات الصريحة بعمومها . وقال ﷺ : « بُعِثْتُ إلى النَّاس كافةً »[1] وكاتب ملوك العالم يدعوهم إلى الإسلام ما أمكنه التبليغ .

وانتشرت دعوة الإسلام في كافة أنحاء الدنيا ، ومختلف أُمَمِها من أنواع البشر ، وأقبلت عليه برغبات صادقة وقلوب واعية .

---

(١) رواه الطبراني عن السائب بن يزيد ، والبيهقي عن أبي أمامة ، رضي الله عنهم .

وأذكر للمناسبة أبياتاً من قصيدة قلتها في دعوته ﷺ وهي:

وَلَقَـدْ هَبَطْـتَ إِلـى البِـلَادِ مُعلِّمَـاً
كَـالْغَيْـثِ طَبَّـقَ عَـرْضَهَـا والطُّـولَا

أو كَالْمُنِيرَةِ[1] في ضُحَاهَا لَمْ تَدَعْ
لَيْـلاً وَلَا نَجْمَـاً ولَا قنْـدِيـلا

وتَرَكْتَهَا سَمْحَاءَ[2] لَامعَةَ الصُّوَى[3]
جَـرَّتْ عَلَـى كتْـبِ السَّمَـاءِ ذِيُـولَا

دَارَتْ مَعَ المَلْوينِ[4] وَاتَّخَذَتْ لَهَا
جُنْدَ الْحَقِيْقَةِ مُسْعِداً[5] ومُديلا[6]

وسَفِيـرُهـا القُـرْآن يَهْـدِي لِلَّتِـي
مِنْهَـاجُهَـا أَقْـوَى وَأَقْـوَمُ قِيْـلَا

* * *

(١) المُنيرة: الشمس.
(٢) سمحاء: السماح والسماحة: الجود. والمسامحة: المساهلة.
(٣) الصُّوَى: الأعلام من الحجارة، أي العلامات التي توضع على الطريق. وفي الحديث: «إن للإسلام صُوًى ومناراً كمنارِ الطريقِ» [مختار الصحاح].
(٤) المَلَوَيْنِ: الليل والنهار.
(٥) مُسعداً: من سَعَدَ الماء سَعَدَاً، أي جرى سيحاً لا يحتاج إلى دالية.
(٦) مُدَيلا: من دول الشيء أي جعله متداولاً، وقيل مؤيداً وناصراً.

١٠ ـ دلائل وجود الله ووحدانيته

علمتَ أن كُلَّ ما حواه الوجود من مبدعات كاملة ومخلوقات مختلفة سماوية وأرضية ، وحيوان ونبات وجماد دلائلُ على القدرة الإلـٰهية ، وحَسْبُ العاقل أن يفكر فيها وفي صنعها وإحكامه ، ليستدل بها على وجود الله وقدرته الباهرة ويخضع لجلاله وعظمته وكماله وحكمته ، ويعبده حق عبادته ، وكلها مبثوثة في الكتاب والسُّنة ، ومرقومة في صحائف الوجود .

ومن القضايا البديهية أن كل مصنوع لا بدّ له من صانع ، وكل حادث لا بد له من مُحدِث .

فهل يقبل العقل أنَّ داراً انتصبت بنفسها من غير بانٍ أو مهندس ، وأنَّ فُلْكاً وُجِد من غير صانع ماهر ، وأنَّ السموات مرفوعة بنفسها وأفلاكها متحرّكة بإرادتها ؟ كلاَّ !

وهل يقبل عقل أن تقوم هذه المملكة العظيمة المحكمة في السماء والأرض بلا صانع قادر حكيم ؟ كلاّ ، ثمّ كلاّ ! بل

كل ذلك بخلقه تعالى ، وقدرته وحكمته وحده ، لا شريك له في شيء من ذلك .

قيل لأعرابي : ما الدليل على وجود الإله تعالى ؟ فقال : سبحان الله إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، ألا يدل ذلك على وجود العلي القدير ؟ .

وسأل بعض الزنادقة الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه عن دليل وجود الباري عز وجل . وتهدَّدوه إن لم يقنعهم ، فقال : « دعوني فإني مفكر في أمر عجيب قد أخبرت عنه : ذكروا لي أن سفينة في البحر موقَرَةً ، فيها أنواع من المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها ، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد » . قالوا : « هذا شيء لا يقوله عاقل ! » قال : « وَيحَكُمْ ! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المُحْكَمَة ليس لها صانع ؟ » فبُهت القوم ، ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه .

ومما جاء في القرآن الكريم من الآيات الداعية إلى وجوب

التأمل والتفكر في بدائع الصنع الإلـٰهي في كل شيء كائن للاستدلال بها على قدرة الصانع ووجوده ووحدانيته في مملكته ، قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٦] ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥ ـ ٧] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ١٧ ـ ٢١] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] إلى غير ذلك من الآيات .

* * *

١١ ـ قصيدة رائعة
للإمام عبد الله بن جعفر مدهر

وإليك قصيدة عصماء في مجال التنويه بعظيم صنع الله ، والتنزيه لكماله وجلاله ، والتذكير بنعمائه ونواله ، للسيد الإمام « **عبد الله بن جعفر مدهر العلوي** » نذكرها بنصها لترابط دراري نظمها ، وأخذ معاني بعضها برقاب بعض ، واشتمالها على لطائف ومعارف ونظام ، تهيم في فهمها الأفهام ، وتسكر الأرواح من أنسها وقدسيتها بغير مُدَام ، وتزكو طيباً من ريَّا نفحات مسك ذلك الختام ، فلا عتب إذاً على المحب إذا أطنب في نعتها ولا ملام ، ولا إذا تمنى أن يدنو من مضارب خيامها ويحظى برشف الحميا وكشف اللثام . وها هي القصيدة :

بانَت القُدرةُ من ربٍّ قديرِ   وتجلّت فهي نور فوق نورِ
صـدَع الحـقُ بمـا أوضحَـه   صاحبُ القوة والشأن الكبيرِ
هذه النيرانُ لا حَتْ للهُدى   في دُجى الليل فجدُّوا في المسيرِ

إن مـوسـى قـد كفَتْه قَبْلهَـا ... خيرُ نارٍ أوقِدَتْ من خَيْر طُورِ
سبقـت أرواحُ قـوم عطشـوا ... فارتووا من ذلك الماءِ النميرِ
وسَقوا جمرَ النَّوىٰ خمرَ الهوى ... فتـداوَوْا مـن جمـارٍ بخمـورِ
وتبقَّـوا بيـن أحـوالٍ فَهُـمْ ... بيـنَ أفـراحٍ وطيـبٍ وسـرورِ
وحضــورٍ وحبـورٍ ورضـاً ... وقصــورٍ وجنــانٍ وزهــورِ
قـف علـى أبـوابـه معتـرفـاً ... في مقام البائسِ العبدِ الفقيرِ
باسِطَ الكفِّ إلى ذي كرمٍ ... واسعِ المعروفِ توَّابٍ غفورِ
متعــالٍ دائــمٍ منفــردٍ ... صَمَـدٍ مقتـدرٍ بَـرٍّ شكـورِ
وعلــيٍّ وعظيـمٍ قـاهــرٍ ... ورفيــعٍ وسميــعٍ وبصيــرِ
وحليـم وكـريـم محسـنٍ ... ورؤوفٍ ولطيــف وخبيــرِ
جلَّ ذو القُدْرةِ في قُدْرتِهِ ... عـن نـديـدٍ وسَمِـيٍّ ونظيـرِ
وتعـالـى عـن صباحٍ ومَسَا ... هـو فيـه أو عَشِـيٍّ أو بكُـورِ
ومكــان وزمــانٍ يحتــوي ... منـه تكييـف قـديـمٍ وأخيـرِ
أو بُـدُوٍّ أو نهـايـاتِ مَـدًى ... أو عديد من سنين أو شهورِ
أو عيـون أو ظنـون أدركـتْ ... أو دهور فهو خَلَّاقُ الدهورِ
يا نجومَ الليل مَن رَدَّكِ مِن ... جانب المشرق عُقبىٰ أن تَغُوري
مَنْ سواه صاحب العزِّ الذي ... قال بالقدرة للأفلاك دوري
يا هلالًا عاد كالعرجون مَن ... خلَّ عن جسمك لألاءَ البدورِ

قل لهذي الشمس مَن عرَّفها طُرْقَها بين ورودٍ وصدورِ
تقطع الدنيا نهاراً واحداً ويَكِلُّ الريحُ منها في المسيرِ
إن في الأرض كآيات السَّمَا بيِّنَاتٍ ظهرتْ أيَّ ظهورِ
من ثمارٍ من نباتٍ طالعٍ من سيولٍ من غمامٍ من بحُورٍ
من جبالٍ أنزلتْ من برد لاقت الشمس فذابتْ بالحرورِ
ونهار بعد ليل دامسٍ وظلامٍ آخِرَ الصبح المنيرِ
وحياةٍ ومماتٍ فيهما يستوي حالُ صغيرٍ وكبيرِ
كل ذا بالكاف والنون جرى فهْو من غير لُغوبٍ وفتورِ
يا خفيَّ اللّطُف يا ديانُ يا ذا العطا يا جابرَ العظمِ الكسيرِ
يا غياثَ المستغيثينَ ويا ملجأ اللاجى وأمنَ المستجيرِ
يا ملاذي كن ملاذي واكفني كلَّ سوءٍ يانصيري كن نصيري
واكفنا من همٍّ دنيانا ومن شدَّةِ الموتِ ومن نار السعيرِ
وصلاة المَلِكِ الأعلى على أحمدَ المختارِ تَكرارَ العصورِ

قال بعض العارفين : من طلب دليلاً على وحدانية الله ، فالحمار أعرف بالله منه . فلا يكن نظرك إلى الموجودات نظر الطفل الرضيع أو الجامد الجاحد ، يراها أمام بصره هياكل ماثلة ، بل نظر المعتبر الرشيد ، يشهد الصانعَ في الصنعة ، ويشهد المكوِّنَ في الأكوان ، فإن استعظم خلقها وتكوينها

فخالقها أعظم ، وهو بكل شيء محيط . ولله در من قال :

كل ما تَرْتَقِيْ إليه بوَهْمٍ   مــن جــلالٍ وقــدرةٍ وسَنَــاءِ
فــالــذِي أَبْـدَعَ البَـرِيَّـةَ أَعْلَـى   منـه سُبْحَـانَ مُبْـدِعِ الأشيـاءِ

* * *

١٢ ـ أثر التوحيد وكلمته المشرفة

إن التوحيد أعظمُ النعم وأنفعُها في الدنيا والآخرة . فعلى من أنعم الله عليه به أن يعرف قدر تلك النعمة ، ويسعى في حفظها ورعايتها ، ودوام الشكر عليها ، والاغتباط بها . وأن يجتهد في تقوية توحيده بملازمة الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة ، التي هي فروع التوحيد ، وثمرات الإيمان ، مع اجتناب أضداد ذلك من الأخلاق السيئة والمعاصي .

وفي الحديث : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[١] . والمعاصي بريد الكفر . وعند فقد التوحيد والإيمان لا ينفع شيء من الأعمال ، ولو كان عمل الأولين والآخِرين . وحيث بقي مع الإنسان توحيده وإيمانه ، فلا يضره شيء ولو قارف المعصية ، فإنه لا يخلد في النار ، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان .

---

(١) رواه البخاري (٢٢٩٥) ومسلم (٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وإن للشهادتين أثراً عظيماً في تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق ، وتقوية الرابطة الاجتماعية . فإن في شهادة أن لا إلـه إلا الله تحريراً للعقول من الأوهام ، وتطهيراً للنفوس من أدران الشرك ، وسمُوّاً بها من حضيض العبودية لغير الله تعالى ، ومن الانحطاط إلى رذيلة عبادة الأصنام والحيوان والإنسان . وبها جمعُ القلوب على معبود واحد ، وتوجيه الوجوه إلى قبلة واحدة . ولهذا التوحيد أثره الطيب في جمع القلوب وتعاون بني الإنسان على الخير والصلاح . كما أن في شهادة أن محمداً رسول الله ، والإيمان برسالته ﷺ وكتابه القويم تقويةً للأخلاق ، وإصلاحاً للنفوس ، وأسوة حسنة في جميع الشؤون .

فهاتان الكلمتان هما كنز المؤمن ورأس ماله ، ومرجع سعادته في الدنيا والآخرة ، لمن تحقق بمقتضاهما ، واستنار بسناهما فيما يلزمه من جانب التوحيد ، والتعلق بالجناب الأقدس ، واستلهام واردات إمداداته والتعرض لنفحات وَصْله وَصِلاَتِه ، وفيما يلزمه من جانب الاتباع لرسوله الأكرم ﷺ العروة الوثقى والأسوة الحسنة في سائر المعاملات الدينية والدنيوية ، وفي صلاح المعاش والمعاد والقلب والقالب

والفرد والمجموع . فعلى قطب هاتين الشهادتين يدور صلاح بني الإنسان في الدارين .

واعلم أن لهذه الكلمة المشرفة شطرين : أحدهما نفي وهو قولك : لا إلـٰه ؛ والآخر إثبات وهو قولك : إلا الله . فإذا صدر النفي معقَّباً بالإثبات فمعناه من المسلم تقرير التوحيد في القلب بهذه الكلمة الشريفة المنافي للشرك الأكبر الذي يقدح في أصل الإيمان ، ويتأكد بتكرارها قلباً ولساناً . قال ﷺ : « جددوا إيمانكم » ، قيل : يا رسول الله ، وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : « أكثروا من قول لا إلـٰه إلا الله »[1] ، والمنافي أيضاً للشرك الأصغر ، وهو الرياء في العبادة ، وحب التعاظم على الخلق ، والاستعلاء عليهم وغير ذلك من كل عمل يلاحظ فيه العامل نظر الناس ، ويشتهي ثناءَهم وتعظيمَهم والمنزلةَ عندهم . وفي الخبر : « الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل »[2] وهذا الشرك الأصغر لا يقدح في أصل الإيمان الذي يدور عليه أمر النجاة ، ولكن يقدح في كماله ، فكلمة

---

(١) رواه أحمد (٨٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الحاكم وأبو نعيم في « الحلية » ، عن علي رضي الله عنه ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » عن ابن عباس رضي الله عنهما .

لا إلـٰه إلَّا الله تنفي الشرك الأكبر والأصغر عن الناطق بها المخلص اعتقاداً وعملاً . وفي تقديم النفي وهو : لا إلـٰه ، تخلية للقلب عن تلك الخفايا والأدران ، ثم تحليته وعمارته بأنوار التوحيد والإيمان بذلك الإثبات وهو : إلا الله ، فلا جرم أن في ملازمة الذكر وتكريره حصولَ تصفية الفؤاد وتطهيره وتزكيته من الشوائب وتنويره ، وتوفرَ الحسنات بأعداد الذكر ، كل تهليلة بحسنة ، ومضاعفة الواحد بعشرة إلى أضعاف كثيرة . فإذا لاحظ الذاكر أنها آية من القرآن وقَصَدَ القراءة مع الذكر ، كُتِبَ له ثواب التلاوة .

ومن لطائف الإشارة أن كلمة الشهادة حروفها جوفية ليس فيها شيء من الحروف الشفهية . . للإشارة إلى الإتيان بها من خالص الجوف ، وهو القلب ، لا من الشفتين . وأنه ليس فيها حرف معجم ، بل مجردة من النقط ، إشارة إلى التجرد من كل معبود سوى الله . وأنّ (لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله) سبع كلمات ، وللعبد سبعة أعضاء ، وللنار سبعة أبواب ، فكل كلمة من هذه السبع تغلق باباً من الأبواب السبعة عن كل عضو من الأعضاء السبعة .

* * *

١٣ ـ تنبيه مهم

حيثُ علمتَ أن الإلـٰهَ هو المعبودُ بحق . وأن العبادة لاتكون لغيره ، ويعبر عنها بغاية الخضوع والتذلل لجلال الله وعظمته وأداء الأعمال الشرعية عبوديةً له واستسلاماً ، ودعاءه والاستعانة به في الملمات تضرعاً وابتهالاً ، والخوف والرجاء منه ، والرغبة والرهبة والحب والإخلاص له ، والتألُّه(١) والالتجاء إليه والتوكل والاعتماد عليه ، إلى غير ذلك من واجبات ربوبيته وجلاله ، ذلك المعنى الرباني والشعور الديني الذي لا تعنو وتخنع وتسخُو به نفس المؤمن إلا لمولاها وخالقها ، عبادة وعبودية وعبودة(٢) ، فاعلم أنه لا ينافي

---

(١) التألُّه : استغراقُ القلبِ والهمَّة بالله عز وجل بحيث لا يُرى غيرُهُ ولا يُلْتَفَتُ إلى سواه ولا يُرجَى ولا يُخاف إلا إياه . (قاله الإمام الغزالي رضي الله عنه في « المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى » . . في شرح اسم « الله ») .

(٢) العبادة للعامَّة ، والعبودية للخاصَّة ، والعبُودَة لخاصة الخاصة . فالأُولى علم يقين ، والثانية عين يقين ، والثالثة حق يقين ، أو كما قيل إسلام =

العبادة والاستعانة به تعالى تعاطي الأسباب الحسيّة والمعنوية في دائرة ما أباح الله لعباده منها كتناول الدواء والاستشفاء بآيات الله وأسمائه ، والاستعانة - في غير مذلة - بشخص لقضاء مصلحة مشروعة ، كالْتِماس الدعاء من مسلم والتوسل به ، فيما لا يعدو مقدرته وطوره ، إلى الله تعالى ، وذلك بالتوجه إليه تعالى في قضاء ما رامه المتوسل من مطالب الدنيا والآخرة ، كما وعد بذلك في حديث : « ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببتُه . . كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَهُ الذي يبصر به ، ويدَه التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه »[1] ولا يطلب المتوسل من المتوسَل به الإيجاد والإنشاءَ ؛ لأن ذلك لله تعالى وحده وليس في مقدرة العباد وطورهم . ومثل خفض الجناح لوالديه من الذل والرحمة ، ولين الجانب ، والتواضع للمسلمين ، وتوقير أُولي العلم والصلاح والشرف ، والتأدب لهم ، لا يقدح كل ذلك في

= وإيمان وإحسان ، أو شريعة ، وحقيقة ، وتحقيق .

(١) رواه البخاري (٦٠٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

توحيد المسلم ما دام مستيقناً أن هذه كلها أسباب لا ثمرة لها ولا تأثير إلا بإذن الله تعالى ومعونته ، وما دام يرد كل النتائج والآثار إلى الله تعالى ، ولا ينسب منها شيئاً إلى المخلوقين إلا على سبيل التسبُّب والمجاز ، فلا تسمى هذه عبادة ولكنها من تعاطي الأسباب وتبادل المنافع والتعاون على البر والتقوى . ومعلوم أن التعاون إعانةُ كلٍّ للآخر ، وهي في حدود مقدرة الآدميين لا تتجاوز السبب والمجاز . وربُّنا يقول : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] وفي الحديث : « واللهُ في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كَانَ الْعَبدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ »[١] . هذا هواعتقاد أهل السُّنة والجماعة والسواد الأعظم من الأمة المحمدية ، وعليه عملهم من لدن القرون الثلاثة إلى يومنا هذا ، ومقرر في كتبهم المستفيضة شرقاً وغرباً ، فراجعها إن شئت .

وقد يلتبس على بعض الناس موجب المنع ومقتضى الجواز في عمل من أعمال المكلفين لخفاء العلّة ، فيحكم بحرمة انحناء الرأس عند تقبيل يد الوالد ، أو عالم صالح مثلاً ، زعماً منه أنه تحيةٌ وتعظيمٌ مختصٌ به الله ، ولظاهر

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ما في حديث : إن الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له ؟ قال : « لا » ، قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : « لا » ، قال : أفيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال : « نعم »[1] .

ولكن ينبغي تدقيق النظر في مثل ذلك فيعلم أنه ليس كل انحناء يقصد به التعظيم فقد يكون ذريعة لغيره ، فالانحناء عند التقبيل إنما هو وسيلة عارية عن معناه الذي يقتضي الحرمة . وفسّر العلماءُ المنهِيَّ عنه في الحديث بالذي يقصد به التحية والتعظيم نفسه ، كما هو تحية عند بعض الأمم .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٢) عن أنس رضي الله عنه .

١٤ ـ واقعة الحال

وأذكر حادثة جرت لي مع بعض الإخوان وقد رآني في جماعة من المصلِّين في المسجد نتصافح وبعضهم يقبل يد من يرى له ذلك ، فناداني بحدَّة ، وقال : « لماذا تفعلون هكذا ؟ هذا شِرْكٌ ! » فقلت له : « مهلاً يا أخي ، قد تعجلت بتشريك إخوانك المصلين . أكل من حنى رأسه لحاجة يُحكم عليه بالشرك ؟ أنت الآن تخرج من المسجد وتحني رأسك للبس نعلك وتذهب إلى بيتك فتحني رأسك لصحن طعامك ، وتحنو على طفلك فتحني رأسك لتقبيله . . وهكذا ، أَفَتَعُدُّ كُلَّ انحناء شركاً ؟! لقد استكثرت من أسباب الشرك ، أما نحن فما خرجنا عن الإسلام ، ولا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، ولا نُكَفِّر مَنْ أَمَّ قِبلتَنَا ، ونحسن ظننا في كل مُوحِّد ، ونعلم أن التعظيم الحق إنما هو لله وحده ، وأن هذه الإنحناءات لا للتعظيم ، بل لحاجات مشروعة وآداب مرعية » .

* * *

١٥ ـ لا بدّ للدخول في الإسلام من النطق بالشهادتين

قدَّمنا أنه لا بد في الإسلام من الشهادتين اعتقاداً ، فلا يُعَدُّ مسلماً من شهد لله بالوحدانية وجحد الرسالة . ونقول هنا : إنه يشترط لمن أراد الدخول في الإسلام أن ينطق بالشهادتين معاً بلفظ أشهد أو بترجمته وهو اللفظ الدال على العلم اليقينيِّ والإذعان القلبي والتصديق الواقعي ، حتى كأن ما عَلِمَهُ وأيقن به أمر مشاهد محسوس ، فيقول : « أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » فلا يكفي قوله لا إلـه إلا الله بلا شهادة ولا اعتراف ، ولا قوله محمد رسول الله بدون ذلك .

وينبغي لمن يُسْلِمُ على يديه أحدُ الناس أن يلقِّنه الشهادتين ، أو مرادفهما من لغة أخرى بما يفيد معناهما وإنكارَ ما يخالفهما ، وعدمَ التردد فيهما ، مع التبري من كل دين يخالف دين الإسلام . وإذا جاءه من يريد الإسلام فليبادر

بتلقينه الشهادتين ولا يؤخره ولو كان على المنبر في خطبة الجمعة ، فينزل ريثما يلقنه الشهادتين ثم يعود ، ولا تبطل خطبته فإن التأخير رضاً ببقائه على الكفر ، وقد جاء مستسلماً ، والرضا بالكفر كفر ، وقد تخترمه المنيَّةُ قبل التلقين وفي ذلك خطر عظيم . ولا يأخُذ على تلقينه الشهادتين ودعوته إلى الإسلام أجراً ، فإن ذلك واجب وأجره على الله . وأخذ الأجر عليه من العبد مساومة في الدين ، وتنفير من الإسلام ، وحرمان من الثواب الجزيل . ومن أسلم على يديه أحد فله الجنة لقوله ﷺ : « مَنْ أَسْلَمَ علَى يديهِ رجلٌ وجبَتْ له الجنةُ »[1] .



---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » عن عقبة بن عامر رضي الله عنه .

١٦ ـ أول ما يجب تعليمه

وأول ما يجب تعليمه لمن دخل في الإسلام الأمورُ الضرورية التي لا يقوم إسلام إلا بها ، كأركان الدين ، والعلم بوجوب الصلوات الخمس ، وكيفية فعلها وشرائطها ومواقيتها والطهارة لها ، وكالعلم بوجوب الزكاة والقَدْر الواجب منها ، والوقت الذي تجب فيه ، والعلم بوجوب صوم رمضان وشرائط الصوم ومبطلاته ، والعلم بوجوب الحج على المستطيع وما به الاستطاعة ، وسائر المناسك ، والعلم بوجوب الواجبات العينية وبتحريم جميع المحرمات التي هو عرضة للوقوع فيها كالزنا واللواط وشرب المسكر والخيانة والقتل والسرقة والكذب والغيبة والنميمة وأشباه ذلك ، وكالعلم بما تمسّ إليه حاجته الضرورية من شروط صحة البيع والشراء ، والمعاملات ، والنكاح ، وما إلى ذلك ، ليعمل بذلك عملاً صحيحاً .

وكل ذلك بالحكمة والرفق ، مع الحرص على التأليف

واجتذاب القلب ، وإزالة الشُّبَهِ والشكوك التي أثارها في نفسه أَعداء الإسلام قبل إسلامه ، ببيان واضح مدعَّم بالدليل ، لترسخ في نفسه الحقائق الإسلامية وتزول منها الوساوس الشيطانية والأباطيل الكيدية .

ومن أهم الأمور معرفة ما يجب لله تعالى ، وما يستحيل وما يجوز ، معرفةً راسخة يقينية ، ويعينه على ذلك دراسة عقيدة جامعة على مذهب أهل السُّنة والجماعة كعقيدة حجة الإسلام الغزالي ، وعقيدة الإمام عبد الله بن علوي الحداد ، وكذا معرفةُ أسماءِ نَبِيِّنا محمد ﷺ واسمِ أبيه وأمه ، وأنه ولد بمكة وبعث بها وهاجر إلى المدينة وتوفي ودفن بها ، والإلمام ببعض معجزاته وأخلاقه وفضائله صلى الله عليه وآله وسلم ، وغير ذلك مما لا يسع مسلماً جهله ، أو مما يحسن علمه .

وهاك نص عقيدة الإمام الحداد ، وآثرتها بالذكر لاختصارها واشتمالها على ما لا بد منه من خلاصة عقيدة أهل السُّنة والجماعة ، فخذها بقوة ، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

* * *

١٧ ـ عقيدة الإمام الحدّاد

قال نفع الله به : الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وبعد . .

فإنا نعلم ونعتقد ونؤمن ونوقن ونشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لاشريك له ، إلـه عظيم ، ملك كبير ، لا رب سواه ولا نعبد إلا إياه . قديم أزلي ، دائم أبدي ، لا ابتداءَ لأوَّليَّته ولا انتهاءَ لآخِريَّته . أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، لا شريك له ولا نظير ، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وأنه تعالى مقدَّس عن الزمان والمكان وعن مشابهة الأكوان ، لا تحيط به الجهات ولا تعتريه الحادثات ، مستوٍ على عرشه على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده ، استواءً يليق بعزِّ جلاله وعلوِّ مجده وكبريائه ، وأنه تعالى قريب من كل موجود وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وهو على كل شيء رقيب وشهيد . حيٌّ قيُّوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له :

كن ، فيكون ، الله خالق كُلِّ شيء ، وهو على كل شيء وكيل .

وأنه تعالى على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، قد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كلَّ شيء عدداً ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، ويعلم السرَّ وأخفى ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا في كتاب مبين .

وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات ، وأنه لا يكون كائن من خير أو شر أو نفع أو ضر إلا بقضائه ومشيئته ،فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يحرِّكوا في العالم ذرة أو يسكِّنوها دون إرادته لعجزوا عن ذلك .

وأنه تعالى سميع بصير ، متكلم بكلام أزليٍّ لا يشبه كلام الخلق . وأن القرآن العظيم كلامُه القديم وكتابه المنزل على رسوله ونبيه محمد ﷺ .

وأنه سبحانه الخالق لكل شيء والرازق له والمتصرف فيه كيف يشاء ، ليس له في ملكه منازع ولا مدافع ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يسألون .

وأنه تعالى حكيم في فعله ، عادل في قضائه ، لا يتصور منه ظلم ولا جور ، ولا يجب عليه لأحدٍ حقٌّ . ولو أنه سبحانه أهلك جميعَ خلقه في طرفة عين لم يكن بذلك جائراً عليهم ولا ظالماً لهم فإنهم ملكه وعبيده ، وله أن يفعل في ملكه ما يشاء ، وما ربك بظلامٍ للعبيد ، يثيب عباده على الطاعات فضلاً وكرماً ، ويعاقبهم على المعاصي حكمةً وعدلًا .

وأن طاعته واجبة على عباده بإيجابها على ألسنة رسله عليهم السلام . ونؤمن بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله الله ، وبملائكة الله ، وبالقدَر خيره وشرِّه .

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله إلى الجن والإنس والعرب والعجم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وأنه بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغُمة وجاهد في الله حق جهاده ، وأنه صادق أمين مؤيَّد بالبراهين الصادقة والمعجزات الخارقة ، وأن الله

فرض على العباد تصديقه وطاعته واتِّباعه ، وأنه لا يقبل إيمان عبد ، وإن آمن به سبحانه ، حتى يؤمن بمحمد ﷺ وبجميع ما جاء به وأخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة .

ومن ذلك أن يؤمن بسؤال منكر ونكير للموتى عن التوحيد والدين والنبوَّة ، وَأن يؤمن بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذابه لأهل المعصية ، وأن يؤمن بالبعث بعد الموت وبحشر الأجساد والأرواح إلى الله تعالى ، والوقوف بين يدي الله تعالى ، وبالحساب ، وأن العباد يتفاوتون فيه إلى مناقَش ومسامَح وإلى من يدخل الجنة بغير حساب . وأن يؤمن بالميزان الذي توزن فيه الحسنات والسيئات ، وبالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم ، وبحوض نبينا محمد ﷺ الذي يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة ، وماؤه من الجنة . وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم الصديقين والشهداء والعلماء والصالحين والمؤمنين ، وأن الشفاعة العظمى مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يؤمن بإخراج من دخل النار من أهل التوحيد ، حتى لا يخلد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأن أهل الشرك والكفر مخلدون في النار أبد الآبدين ،

لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

وأن المؤمنين مخلدون في الجنة أبداً سرمداً لا يمسهم فيها نَصَب وما هم منها بمخرَجين .

وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم على ما يليق بجلاله وقُدس كماله . وأن يعتقد فضلَ أصحاب رسول الله ﷺ وترتيبَهم ، وأنهم عدول أخيار أمناء ، لا يجوز سبُّهم ولا القدح في أحد منهم . وأن الخليفة الحقَّ بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان الشهيد ثم عليّ المرتضى رضي الله عنهم وعن أصحاب رسول الله أجمعين ، وعن التابعين بإحسان إلى يوم الدين وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

فهذه هي العقيدة السديدة ، الموافقة للكتاب والسنة الحميدة ، التي لا يسع مسلماً ـ ذكراً كان أو أنثى ـ جهلُها ، ولا يصلح الإيمان بدون اعتقاد معانيها . ولا يشترط أن يحسن كل إنسان التعبير عنها ، إذ الاعتداد بما يشتمل عليه القلب .

❋ ❋ ❋

١٨ ـ فضائل الكلمة المشرفة

ويحسن أن نشير هنا إلى طرائف من فضائل تلك الكلمة الشريفة ، وما في ذكرها من اللطائف والأسرار المنيفة ، فمن ذلك ما صح عن النبي ﷺ ، أنه قال : « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إلـه إلا الله دخل الجنة »[١] .

وقال ﷺ : « ليس على أهل لا إلـه إلَّا الله وحشة في قبورهم ، وكأَني بهم وقد خرجوا من قبورهم ، ينفضون التراب عن رؤُوسهم ، يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن إن ربنا لغفور شكور »[٢] .

وقال ﷺ : « أفضل الذكر : لا إلـه إلا الله »[٣] .

وقال ﷺ : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إلـه

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٠٩) وأحمد (٢١١١٠) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٢) رواه الطبراني والبيهقي في « شعب الإيمان » عن ابن عمر رضي الله عنه .
(٣) رواه الترمذي (٣٣٠٥) وابن ماجة (٣٧٩٠) عن جابر رضي الله عنه .

إلا الله »[1] .

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه : « إني أنا الله لا إلـه إلا أنا ، من أقرَّ لي بالتوحيد دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي »[2] .

وقال ﷺ: « جدِّدوا إيمانكم ، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدِّد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول : لا إلـه إلا الله »[3] .

وقال ﷺ : « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله يملؤه ، ولا إلٰه إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلُصَ إليه »[4] .

وقال ﷺ : « من شهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، والجنة حق والنار حق . . أدخله الله الجنة على ما كان منه من العمل »[5] .

---

(١) رواه الترمذي(٣٥٠٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) رواه الشيرازي وابن النجار ، عن علي كرم الله وجهه .

(٣) رواه أحمد (٨٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه الترمذي (٣٤٤٠) عن عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما .

(٥) رواه البخاري (٣١٨٠) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

وفي رواية لمسلم : « من شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمد رسول الله حرم الله عليه النار »[1] .

وقال ﷺ : « من قال لا إلـه إلا الله مخلصاً دخل الجنة . » قيل : يا رسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله »[2] .

وقال ﷺ : « لقِّنوا موتاكم لا إلـه إلا الله[3] فإنها تهدم ما كان قبلها من الخطايا . » .

وقال ﷺ لمعاذ : « يا معاذ ، ما من أحد يشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه . . إلا حرمه الله على النار »[4] .

وقال ﷺ : « إن الله حرم على النار من قال لا إلـه إلَّا الله يبتغي بذلك وجه الله »[5] .

---

(١) رواه مسلم (٤٢) والترمذي (٢٥٦٢) وأحمد (٢١٦٥٣) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني ، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم (١٥٢٣) وأبو داود (٢٧١٠) والترمذي (٨٩٨) والنسائي(١٨٠٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (١٢٥) ومسلم (٤٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري (٤٠٧) ومسلم (١٠٥٢) عن عتبان بن مالك .ورواه الأربعة =

وقال ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه : « اذهب . . . فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إلـٰه إلا الله مستقيناً بها قلبه . . فبشِّره بالجنة »[(١)] .

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : « يا رسول الله ، ما الموجبتان ؟ » قال : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله دخل النار »[(٢)] .

وجاء أن موسى عليه السلام قال : « يا رب ، علِّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك » ، قال : « يا موسى ، قل : لا إلـٰه إلا الله » قال : « يا رب ، كل عبادك يقولون هذا » ، قال : « يا موسى ، لو أن السمواتِ السبعَ وَعامِرَهن والأرضين السبع في كِفَّة ، ولا إلـٰه إلا الله في كفة . . لَمالَتْ بهن لا إلـٰه إلا الله »[(٣)] .

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل : « أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ » قلت : « الله ورسوله

= عن أبي هريرة رضي الله عنهم .

(١) رواه مسلم (٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الديلمي ، عن جابر رضي الله عنه .

(٣) رواه النسائي وابن حبان والحاكم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

أعلم ، قال : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به » فقلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : « لا تبشِّرهم فيتَّكِلُوا »[1] .

وقال ﷺ : « أتاني جبريل فقال : بشِّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً . . دخل الجنة . قلت : يا جبريل ، وإن سرق ، وإن زنى ؟ قال : نعم ، قلت : وإن سرق ، وإن زنى ؟ قال : نعم ، قلت : وإن سرق ، وإن زنى ؟ قال : نعم ، وإن شرب الخمر »[2] .

* * *

(١) رواه البخاري (٦٨٢٥) بنحوه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٥٩٦٢) عن أبي ذر رضي الله عنه .

١٩ ـ حسن الخاتمة وسوؤها

وإن الموت على التوحيد والإسلام هو غاية سعادة الحياة ورِبْحُ تجارتها ، ولا يزال المسلم متضرعاً وسائلاً من الله أن يتوفاه مسلماً ، وبذلك وصف الله أنبياءه والصالحين من عباده ، فقال مخبراً عن يوسف عليه السلام : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] وحكى تعالى عن إبراهيم أنه وصَّى بنيه ، وعَن يعقوب أنه وصَّى بنيه أيضاً ـ عليهما السلام ـ بالموت على الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وعلى الإنسان أن يجتهد حق الاجتهاد في حفظ إسلامه وتقويته بامتثال أوامر الله تعالى . فإن المضيع لأوامر الله متعرِّض للموت على غير دين الإسلام ، فإنَّ تَرْكَه الامتثال دليل على استهانته بحق الدين .

وعليه أن يجانب المعاصي والآثام ، فإنها تضعف الإسلام

وتزلزل قواعده ، وتعرضه للسلب عند الموت . وأن لا يزال سائلاً من الله حسن الخاتمة ، والموت على الشهادة ، وخائفاً وَجِلاً من سوء الخاتمة ، فإنها القاصمة . والله مقلب القلوب ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

واعلم أن كثيراً ما يُختَم بالسوء للذين يتهاونون بالصلاة المفروضة والزكاة الواجبة ، والذين يتتبعون عورات المسلمين ، والذين ينقصون المكيال والميزان ، والذين يخدعون المسلمين ويَغُشُّونَهم ، وَيُلَبِّسُونَ عليهم في أمور الدين .

ومنهم الذين يغضُّون من مكانة السُّنَّة النبوية ، ويدْعون إلى انتقاصها بإلقاء الريب والشكوك فيها ، وهي أعظم مجموعة من الآثار النبوية في التاريخ الإنساني ، فإنه لم يُحفَظ لنبيٍّ من الأنبياء من الأقوال والأعمال والأحوال ما حُفِظَ لنبينا محمد ﷺ .

وقد حوت السُّنَّة من الأحكام التشريعية ، والتنظيمات الاجتماعية ، والمعاني الفذَّة الواسعة ، والمعارف الجامعة ، ما لم يجتمع في أي مجموعة غيرها .

وقد عُنِيَ أئمة الحديث بتدوينه ، وتمحيص رواياته

ـ أسانيدَ ومتوناً ـ تمحيصاً كاملاً ، حتى ميَّزُوا صحيحها وبيَّنوا سقيمها ، وقدَّموا للأُمّة صفوتَها التي يُعتمد عليها في التشريع الإسلامي ، وفيما به الاقتداء والاهتداء لأمّة المسلمين من سُنَن النبي الأمين .

وقد تبع هؤلاء الملَبِّسون أعداءَ الإسلام المستشرقين في هذه الدسيسة الخبيثة واستدلوا بحديث لا يصح وهو : « ما جاءكم من حديث فاعْرِضُوه على كتابِ الله فما وافقه فَمِنِّي ، وما خالفه فليس مِنِّي » ذكره (**جولد تسيهر**)[1] في كتابه « **العقيدة والشريعة** » وهو كذب على رسول الله ﷺ . وإنما الذي صح عنه ﷺ : « لا أُلفِيَنَّ أحَدَكم متكئاً على مُتَّكَإٍ ، يصل إليه عني حديث فيقول : لا نجد هذا الحكم في القرآن ، ألا وإني أوتيت القرآنَ ومثلَه معه »[2] .

وأخرج أبو داود عن العرباض بن ساريةَ السلمي مرفوعاً : « أيحسب أحدكم متكِئاً على أريكته قد يظنُّ أنَّ الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن ، ألا وإني قد أمَرْتُ ووَعَظْتُ ونَهَيْتُ عن أشياء ، إنها كمثل القرآن أو أكثر ، وإن الله عزوجل لم

---

(١) جولد تسيهر : مستشرق يهودي من المجر .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة وأبو داود وأحمد .

يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم »[1] .

* * *

(١) رواه أبو داود (٢٦٥٢) .

٢٠ ـ السُّنة : الأصل الثاني من أصول التشريع

وإذا علمت أن السُّنة هي أقوال رسول الله ﷺ وأفعالُه وتقريراتُه . . فاعلم أنها وحيٌ غيرُ مَتْلُوٍّ . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] والكتاب هو القرآن ، والحكمة هي السّنة ، أنزلها عليه بوحيه وإلهامه ، وإنما يمتاز عنها القرآن بأن ألفاظه العربية مُنْزَلةٌ من عند الله ، وأنه معجزة للبشر ، لا يأتي أحد بمثله ولا بمثل أقصر سورة منه ، وأنه معجزةٌ باقية على وجه الدهر ، محفوظة من التغيير والتبديل ، إلى خواص أخرى كثيرة للقرآن ليست للسُّنة ، من مثل تعلق الثواب بتلاوته ، وعدم جواز روايته بالمعنى ، ولا مَسِّ ما كُتِبَ فيه ، ولا حمله مع الحَدث ، ولا كذلك الأحاديث سواء كانت قدسيّة أو غيرها .

والسُّنة : هي بيان وشرح للقرآن . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ

﴿ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] فبيَّن ﷺ ، وفصَّل وأوضح **بقوله وفعله وتقريره** ما أُجمل في الكتاب ، كعدد الركعات في الصلوات ، وأوقاتها وشرائطها وسننها ، ونُصُب الزكوات فيما تجب فيه الزكاة ، وكذلك ما يتعلق بالصومِ والمناسك في الحج والعمرة من أركان وشروط ومفسدات وغير ذلك . كما جاء في السُّنة أحكام لم يُنَصَّ عليها في الكتاب تفصيلاً في أبواب المعاملات ، وآداب وأخلاق وفضائل ـ ينتظم بها أمر الناس في الحياة ـ أُثِرَتْ عنه ﷺ ، وأمرنا الله تعالى بالتأسي به فيها ، كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] فيصير العبد الطائع المقتدي بالحبيب الأعظم ﷺ محبوباً لله لمحبته لحبيبه .

وما أحسن قول مجنون ليلى :

رأى لَيْلَى فَأَعْرَضَ عَنْ سِوَاهَا ... مُحبٌّ لا يَرَى حُسْناً سِوَاهَا
لَقَدْ ظَفِرتْ يَدَاهُ ونَالَ مُلْكاً ... إِذَا كَانَتْ تَرَاهُ كَمَا يَرَاهَا

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [التغابن : ١٢] ، وقال تعالى :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] والعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، فالحكم عام في كل ما أمر به ونهى عنه ، كما في الآيات الأخرى والأحاديث الكثيرة ، ومنها قوله ﷺ : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبَى » قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فَقَدْ أَبَى »[1] . وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

فقد أمر الله تعالى في كتابه باتِّبَاع سُنةِ نبيِّه إيجاباً وتكليفاً ، فلا يصح الإيمان إلا باتِّباعه ، وإنكار العمل بالسُّنن كفر ؛ لأنه إنكار لما في القرآن .

ولهذا عُنِيَ المسلمون بالأحاديث من عهد الصحابة إلى يومنا هذا فدوَّنوها كما قدَّمنا ، وتناقلوها رواية وكتابة ،

---

(١) رواه البخاري (٦٧٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وبحثوها دراية على أبلغ وجه في الحفظ والضبط والتحرير والتمحيص . فلا يغض من قدر السُّنة ويجافيها إلا ضعيفُ الإيمان بصاحبها ، خارجٌ عن جماعة المسلمين في منهاجهم وعقيدتهم ، بل جاهلٌ بالإسلام أو عدوٌ له مبين .

* * *

٢١ ـ تنبيه

كما أنه لا بدّ لمن يريد استنباط الأحكام الشرعية من الأصلين : الكتاب والسُّنة ، من الإحاطة بهما على الوجه المبين في علم أصول الفقه ، لا بد مع ذلك من التمكن من اللغة العربية الفصحى ، وأساليبها البلاغية وعلومها المعروفة ، فإنها العُدَّة الضرورية لفهم الكتاب العربي المبين ، البالغ في علوٍّ أساليبه وطرائق بيانه حدَّ الإعجاز ، والسُّنن المأثورة عن أفصح ناطق بالضاد ، وعن أصحابه أهل السُّنن وأئمة البيان والبلاغة .

ولا يجوز لمن فقد هذه الوسائل ـ كُلاًّ أو بعضاً ـ أن يتصدى لهذا المقام الخطير ، فيَضِلَّ ويُضِلَّ ويأثم الإثم الكبير .

* * *

٢٢ ـ فتنة ترجمة القرآن الحرْفية

فتنة نائمة لعن الله من أيقظها . هَذَىٰ بها بعض من لا يقدِّر القرآن حق قدره ، ولا يؤمن بإعجازه ، فأخذ يترجم القرآن بإبدال لفظ بلفظ من اللغة المترجم بها ، وزعم ذلك ترجمةً مماثلةً للقرآن تحكيه وتؤدي ما يؤديه ، وهو زعم باطل بداهة ، فإنها قاصرةٌ عن الوفاء بمعانيه ومقاصده ومراميه ، مجردةٌ من خصائصه البلاغية وأسرار إعجازه ، خاليةٌ من الروعة والجلال ، فأين البيان من البيان ، وأين البلاغة والإعجاز في هذا الهذيان ؟ وقد أعجز الله مُنزِلُ الكتاب عامةَ الخلقِ عن الإتيان بمثله ، ولو بلغة أخرى ، فقال : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

ولهذا اتفق العلماء على عدم إمكان ترجمة القرآن ترجمة حرفية تماثله وتؤدي معانيه ومقاصده ، وتحمل أسراره

وخصائصه[1] . وما أتى به المجترئون في هذه التراجم بعيد كل البعد عن القرآن ، بل عبث ظاهر بِقدسيته ، وكأني بهم يقصدون بتراجمهم الاستغناءَ بها عن القرآن ، وتقلُّصَ ظله ، وانتهاكَ حرمته ، وحرمانَ الناظرين فيها من شهود روعته وجمال أسلوبه ، وقدسية بيانه وجلاله المهيب .

وقال إمام الزمن الحبيب الجهبذ « **أحمد بن حسن العطاس** » ، رحمه الله : « إنَّ كلام الله وكلام رسوله موضوع لمخاطبة القلوب والقوالب ، والأشباح والأرواح ، والصور والمعاني ، وجاؤوا ليترجموا القرآن بعد ، باللغة الجاوية والهندية وغيرها، والله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر : ٢٨] مشيراً بذلك إلى وجود العوج في كلام البشر ،

---

(١) للسيد الشريف العلاَّمة « **علوي بن عباس المالكي** » المتوفى سنة (١٣٩١)هـ بمكة بحثٌ نفيس في تحريم ترجمة القرآن حرفياً وجواز ترجمته بالمعنى بشروط ، وعنوانه « ترجمة القرآن الشريف » ، في مجموع دروسه ومحاضراته المطبوع بجدة سنة (١٤١١)هـ تحت عنوان « نفحات الإسلام من البلد الحرام » ص٢٨٦ ، وقد سبق ذلك البحث رسالة للشيخ « **محمد حسنين مخلوف** » العدوي المالكي ، شيخ شيوخ الأزهر ، بين فيها حكم الترجمة الحرفية وأنها باطلة ، وترجمة المعاني وأنها جائزة .
وللمؤلف ـ نفع الله به ـ رسالة مفصلة في هذا الموضوع رد بها على بعض معاصريه ولا تزال مخطوطة، فعسى أن يعين المولى على نشرها ليعم فضلها.

مهما بلغوا من الكمال دون كلام الله تعالى » .

أما الترجمة الحرفية بدون المثل : فهي وإن كانت أقل خطراً من السابقة ، لا تفي أيضاً بالمعاني المرادة من الآيات ، ولا تحمل الخصائص البلاغية ، وأسرار الإعجاز القرآني ، وفيها كثير من الأخطار السابقة .

فمن أراد ترجمة القرآن حرفياً فإنما أراد تغيير إعجازه ، وتبديل مقاصده ، وهدم عربيته التي شاءها الله تعالى وقامت بها الجامعة الإسلامية العربية . وما سمعنا عن السلف منذ عصر النبوة ـ فما بعده ـ تعرضهم لهذه الترجمة إبقاء على جلال القرآن وخصائصه ولغته التي نزل بها من عند الله تعالى على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين . ولذلك لمَّا رام بعض الناس في مصر ترجمة القرآن هذه الترجمة . . قامت عليه قيامة العلماء ، وتناوشتْه أقلام النقد من كل صوب .

ولا يظن أحد أنَّ الترجمة الحرفية ضرورية لتبليغ الدعوة الإسلامية ، ولو كان الأمر كذلك لَعمل بها الرسول ﷺ ، وهو مرسل إلى العرب والعجم جميعاً ، ولَنَصَّ القرآن على طلبها ، ولَقام بها العلماء في الصدر الأول حين تبليغ الدعوة ، وإنما المطلوب شرعاً تبليغ أحكام الإسلام وتعاليمه ومحاسنه ،

ونشر أعلام التوحيد ودلائله كما يشير إليه القرآن والسُّنة النبوية ، ولذلك لم يَقْدُم على هذه الترجمة أحد في تلك العصور الزاهرة .

أما ترجمة معاني القرآن بأية لغة وترجمة أقوال ثقات المفسرين : فهي مطلوبة ممن يحسن الترجمة على الوجه الذي لا يخلُّ بالمقصود ، ليعرف بها من يجهل العربية ، أو لا يحسنها من أهل اللغات الأخرى ، حقيقةَ الدعوة الإسلامية وما جاء فيها من معاني الآيات القرآنية ، وذلك ما جرى عليه المسلمون منذ تصدِّي العلماء لتفسير القرآن .

* * *

٢٣ ـ التهاون برُتَبِ الدِّين

ومما يلحق بهذه الفتنة وينافي التمسك بالأحكام والآداب الشرعية المندرجة في سلك العبادة الموفية بحق الألوهية ، تَسَوُّرُ المرتسمين في بعض البلاد منصب الفتوى الدينية ، وحلِّ مشاكلها المتجددة ، وهم لم يلمُّوا بقواعد الأصول ، ولم يدرسوا الفقه على شيخ محقِّق في كتبه المعروفة ، ولم يَحْظَوْا بشهادة ولا إجازة من أهلهما في الإقراء فضلاً عن الإفتاء ، بل لو وكلتَ إلى أحدهم قراءة آية أو حديث أو عبارة .. قد لا يحسن قراءتها ولا إعرابها فضلاً عن تحليل معانيها ، فكيف الاستدلال بها ! بينما ترى المتصدرين للفتوى في بلاد الإسلام الأخرى المأهولة بالعلم لا ينالون تلك المرتبة إلا بعد ممارستهم للعلوم الشرعية ، وعرضهم على محك الاختبار والامتحان ، واستشارة أولي النظر فيهم وشهادتهم لهم بالأهلية ، فهناك يرتبهم الحاكم وينتظم بهم شمل الشريعة ويتفيأ الناس ظل عدالتها .

وترى حكام القوانين الأخرى لا يُرَشَّحُونَ للقضاء بها حتى يُفْنُوا جُلَّ شبابهم في الدراسة والبحث ، ولا يكفي ذلك في ترشيحهم حتى ينالوا شهادة الخبراء بالكفاية ، وهذا فيما هو من نتيجة آراء الرجال ، فما بالك في الشريعة المطهّرة التي هي من وحي الله تعالىٰ !

فهل تدري كيف يولُّون في منصب الإفتاء في هذه الناحية ؟ إنهم يلتقطون المفتي من الطريق السابلة ويسندون إليه من أمر الشريعة ما لا يخطر له على بال ، فيخبط خبط عشواء ، ويركب متن عمياء ، ويأتي بالفواقر التي لا يُرقَعُ خَرقُها ولا يُسَدُّ ثَلْمُها ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رُؤُوساً جهَّالًا فسئِلوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا »[١] .

وفي هذا الحديث : غاية التحذير من استفتاء الجاهل والأخذ بقوله ، وغاية الوعيد لمن أفتى بغير علم ، والتسجيل عليه بأنه ضال مضل ، ولو علم هؤلاء الغواة بخطورة موقفهم

---

(١) رواه البخاري (٩٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

وإشرافهم على شفير جهنم .. لانْكَفُّوا عن هذا الموقف الرهيب .

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : (أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ، يُسأَل أحدُهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول) . وعن الشعبي والحسن وأبي حصين التابعين ، قالوا : (إن أحدكم يفتي في المسألة ولو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر) وقد مثَّل الإمام الغزالي لمثل هؤلاء المغرورين بعجوز سَمِعَتْ أن رجال الحرب أُثبِتَتْ أساميهم في ديوان السلطان ، فلبست الدرع وحملت السلاح ونَهضَتْ إلى مجلس السلطان ، فأمر باختبارها وتعريتها عن السلاح وتجربتها في القتال والمبارزة ، فلما وقع المغفر عن رأسها وخُلِعَ الدرعُ عن بدنها انكشفت عن عجوز ، فقيل لها : (هذا استهانة بالملك ، فتؤخذ وتقدم للنكال) ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] .

* * *

٢٤ ـ الكفر والجحود

الآن وقد أتينا على طرف مما يجب معرفته من مباحث التوحيد والإيمان ، ينبغي أن نشير إلى طرف مما يتعلق بضدهما ، وهو الكفر والجحود (وبضدها تتميز الأشياء) وفي بيانه تبصرة للناظرين ، وتحذير من الشر والفتنة ، ووقاية من غضب الله وعقابه ، فنقول :

إن الكفر هو الجهل الأكبر ، والظلم الأشنع ، والتغطية على أصل الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والخروج عن سبيلها . فأي جهل أدهى وأمرُّ من جهل مَن لا يعرف ربه ، ولا يوحِّده ويجعل له من خلقه شريكاً ونداً ، كيف لا يعرف مَن خلقه وصوَّره ، وشقَّ سمعه وبصره ، وسوَّاه وأودع فيه العقل وقوة الإلهام ، ويأبى أن يؤمن بآياته البينات ويذعن للحق المبين . يشاهد في كل ناحية من نواحي هذا الكون جميع الأشياء تنادي بلسان حالها على ما في خلقها وصنعها من براعة وإبداع ، ثم لا يهديه عقله إلى معرفة ذلك الخالق

العظيم القدير الحكيم ، الذي أبدعها وأخرجها من العدم إلى الوجود .

مَنِ الذي أوجد المعادن وأودع الخواص فيها وفي الأحجار والأشجار ، وركَّب الفحم والهيدروجين والأوكسجين والآزوت والصوديوم والكالسيوم وغيرها من المواد التي لا حياة لها ولا عقل ، وجعلها قواماً لكائنات حية وذوات منافع عظمى ؟ فمتى يهتدي هذا المطموس القلب إلى العلم الصحيح والعقل الرجيح ؟ وقد تَغَشَّى بظلمة الجهل في أول أمره وتَغَطَّى بشملة الكفر طول عمره ، وخالف فطرة الإسلام المفطور عليها بقلبه وقالبه وجوارحه لغمرها بظلمات الخضوع والعبادة لغير الله . وفيه وفي أمثاله يقول الإمام الحداد :

وتثبط المتشككون وكأنهم ليسوا هنا
سحقاً لمن يشكُّ في الـ ـحق وقد تبيَّنا

فمن أظلم ممن يقضي حياته ظالماً كل شيء حتى نفسه وجوارحه وعقله ؟ وسوف تشهد عليه بإجرامه وسوء تصرفه في محكمة الله العادلة ، حتى الأرضُ التي مشى عليها وسكن على ظهرها عاصياً لله ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ

﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] أي : لأنفسهم ولغيرهم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٩] .

جحد الكافر النعم التي غمره الله بها من كل جانب ، وسخرها له ومكَّنه من استخدامها ، فاستخدم عقله في غير مرضاة الله ، واستهان بمقام ربه ، فكان كمن أُعْطِيَ سيفاً صقيلاً ليتجمل به في المعارض ، ويضرب به رؤوس الأعداء ويقيم به شوكة الأمن والعدل ، فذهب به إلى الأحجار وأكوام التراب والأقذار وأخذ يضربها بحدّةِ يمنة ويسرة ! فهل أَدَل على حمقه وهوسه مِنْ فعله هذا ؟!

بينما نراه يحكم بالكنود والكفران على من تناسى ما عليه لصاحبه من معروف ، ويرمي بالبغي والتمرد على الحكومة موظفاً يخالف مصالحها أو رعوياً يتعدى قانونها . فقل لي بالله : هل هناك بغي أو كفر أعظم من كفر من لا يؤمن بالله الذي خلقه ورزقه وعلَّمه وأنطقه ، ويأبى أن يقرَّ له بالألوهيه وقد يشرك معه أحداً من خلقه ، ويعرض عن توحيده وطاعته وامتثال أمره ، ولن يضر الله بذلك شيئاً ، وإنما بغيه وكفره على نفسه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ

ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٢٣] .

* * *

٢٥ ـ ذوو الكفر كثيرون

وأشد الكافرين عتِيًّا (**الملاحدة الدهريون**) الغارقون في غيابات الجحود المطبوع على قلوبهم وجباههم بطابع الشقاء والكنود ، كهؤلاء الشيوعيين الذين لا يقتصرون على جحود الخالق وإنكار الرسل وما أتوا به ، بل يتعدون إلى الإيقاع بالمؤمنين عتواً وعداوة ، وإغراقاً في الكفر والقساوة ، ويقذفون دينهم بكلمات يرتجف القلب من ذكرها خطراً ، ويرتعد القلم من تسطيرها حذراً .

ومنهم (**المشركون**) : الذين يجعلون مع الله إلـٰهاً آخر ، ومنهم الذين ينسبون له أولاداً وصاحبة .

ومنهم (**الحلولية**) : الذين يزعمون أن الله يحل في بعض الأجسام ، فيجعلون ذلك الجسم إلـٰهاً يعبدونه ويحبونه كحب الله ويصنعون له صوراً وتماثيل يحنون أمامها رؤوسهم ويركعون لها ويسجدون .

وذكر ابن كثير في « تفسيره » ، قال : (يؤتى باليهود يوم

القيامة ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله وعُزَيْراً ، فيقال لهم : خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله والمسيح ، فيقال لهم : خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم : لا إلـه إلا الله ، فيستكبرون ، ثم يقال لهم : لا إلـه إلا الله ، فيستكبرون ، ثم يقال لهم : لا إلـه إلا الله ، فيستكبرون ، فيقال خذوا ذات الشمال . قال أبو نضرة : فينطلقون أسرع من الطير . قال أبو العلا : ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله ، فيقال لهم : هل تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال لهم : فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون : نعلم أنه لا عِدْلَ له ، قال فيتعرَّف لهم تبارك وتعالى وتقدَّس . وينجي المؤمنين » .

* * *

٢٦ ـ أنواع الشِّرك

ولما كان الشرك يُجامِعُ الكفر في سَتر الحق المبين ، وكان منه **أكبر** يخرج صاحبه عن الملة ، **وأصغر** لا يخرج صاحبه عن أهل القبلة ، كالرياء وبعض المعاصي التي أطلق عليها اسم الشرك . . لذا حَسُنَ إيراد ما ذكره بعض المحققين في الشرك ، حيث قال : ثم إن أنواعه والعياذ بالله ستة :

الأول : شرك استقلال ، وهو إثبات إلـٰهين مستقلين ، كشرك المجوس .

الثاني : شرك تبعيض ، كشرك النصارى الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، والآخران عيسى وأمه .

الثالث : شرك تقريب ، وهو عبادة غير الله ليقرِّب إلى الله زلفى ، كشرك متقدمي العرب حين عبدوا الأحجار ، وقالوا : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] .

الرابع : شرك تقليد ، وهو عبادة غير الله تبعاً ، كشرك الجاهلية ، قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

الخامس: شرك الأسباب ، كشرك الفلاسفة والطبائعيين ، ومَنْ تبعهم على ذلك .

السادس : شرك الأغراض ، وهو العمل لغير الله .

فحكم الأربعة الأُوَل الكفر بالإجماع ، وحكم السادس المعصية من غير كفر ، وحكم الخامس التفصيل فمن قال في الأسباب العادية أنها مؤثرة بطبائعها كالنار في الإحراق والماء في الرِّي ، والطعام في الشبع ، والضرب في المضروب . . فهو كافر . ومن اعتقد أنها تؤثر بقوة أودعها الله تعالى فيها . . فهو مبتدع .

ومنهم **(طائفة إباحية)** : تحسب نفسها في عداد المسلمين ، وهي في واقعها تنابذ الإسلام ، وتجافي تعاليمه عقيدةً وعملاً ، وتباهي بالتشبه بأعداء الإسلام في عامة أمورهم وسائر عاداتهم ، بل تغالي في التشبه بهم فيما حرمه الإسلام قطعاً ، كبيع الخمر وشربه ، وأكل لحم الخنزير ، وليس لها من العلاقة بالإسلام إلا التلفظ بالشهادتين مجاراة وتقليداً للمسلمين مع استبطان ما يضادهما في كل حال ، هؤلاء لا تنفعهم كلمة التوحيد مهما قالوها ما داموا على الجحود

القلبي والإنكار العملي ، إلا أن يتوبوا إلى الله مما اجترحوا ، ويثوبوا إلى الهدى والرشد فيعتقدوا معناها يقيناً وصدقاً ، ويعملوا بموجبها حقاً . فعند ذلك يقبل الله توبتهم ، والله تعالى غفور رحيم .

ومنهم (**طائفة القاديانية**) : وهم أشد بلاء على الإسلام من كثير من الطوائف المارقة الضالة ، وهم أتباع الدجال اللعين « أحمد غلام المرزا » صنيعة الإنكليز ويدهم المدسوسة الذي ٱدعى الألوهية والنبوة والمسيحية والمهدوية والتجديد والإسلام في إطار واحد . فما هذا التلاعب والفتون ، وقد أجمع المسلمون على أن من ادعى النبوة بعد سيدنا محمد ﷺ فهو كافر عنيد . وقد ادَّعاها « مسيلمة الكذاب » لعنه الله ، و « سجاح » المرأة ، و « الأسود العَنْسِيّ » وغيرهم ، فأخزاهم الله وفضحهم ، وذلك قبل انتشار الإسلام .

أما اليوم وقد تعاقبت الأجيال على عقيدة الإسلام ، وأصبح من الضروري اعتقاد أن محمداً خاتِمُ النبيين كما نطق به القرآن وبيَّنته السنة ، فيأتي هذا اللعين مهاجماً نبوة خاتِمِ الأنبياء وآخِرِهم ، محاولًا كسر ختمها المنيع ، ونقض لَبِنتها الأخيرة ، متحدياً بذلك العالم الإسلامي بكفره ودجله

وتسويلات شيطانه ، كائداً بذلك الإسلام ، ناصراً لأعدائه في كل مقام ، بل هو ألعن وأخبث من « مسيلمة الكذاب » ، وغيره ممن ادَّعى النبوة ؛ لأنه تظاهر بالإسلام فاستخفَّ أوباشاً كتب الله عليهم الشقاوة ، فأوردهم النار وبئس الورد المورود ، وساعدتهم على ذلك مناسبات شتى وأصابع خفية ، ونشرات تخرج من أوكار اليهود ومباءات كيد الإسلام .

وقد اتخذ لهم ذلك اللعين بدل البيت الحرام مَحَجّاً ومشاعِرَ في بلدة (قاديان) يريد بذلك طمس معالم الدين، وجرح عواطف المسلمين ، وإرضاء سادته الإنكليز وأعوانهم من الخائنين ، كما هي ماثلة إلى الآن تفضح نفسها ، ويكفي في دحضهم أنهم خالفوا صريح الكتاب والسنة وما اجتمعت عليه الأمة كما هو ثابت في رسائل دجَّالهم اللعين ونشراتهم المطبوعة ، بل وأجمع المسلمون في عصرنا هذا على أن فرقة القاديانية مرتدة كافرة ليست من الإسلام ولا من المسلمين في شيء ، وصدرت ضدهم بذلك أحكام مسجلة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار .

ولمَّا انكشف للعَالَم الإسلامي عَوَارُهُم[1] ، ولصق

---

(١) العَوَار : يقال سلعة ذات عوار أي ذات عيب .

بجباههم ومن اتبعهم عارُهم . . عمدوا إلى النواحي الحديثة العهد بالإسلام كأوغندا فروَّجوا فيها كفرَهم وضلالهم ، وبنوا لذلك مساجد هي للكفر مراصد ، وأصدروا صُحفاً ونشرات عنوانها إسلامي وباطنها الضلال والكفر ، وطبعوا تفسيراً للقرآن بالأحرف اللاتينية مملوءاً بالدسائس على مقتضى نحلتهم ، ولم يعلموا أن للدين حافظاً وأن وراء الأشبال ليوثاً تحميها ، وأن في أولئك المستجدين في الإسلام من هم أشد غَيرة على دينهم وتمسكاً به ممن توارثوا الإسلام عن جدودهم وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وانخرمت عهودهم .

ولقد رأوا كيف انتُدب لهم شيخ من علماء « أوغندا » فألجمهم بالحجج الدامغة يوم تحدَّوه بالمناظرة ، وضربوا لها موعداً معلوماً ، فحضر وحضر الجم الغفير من المسلمين وغيرهم ، ولكن سرعان ما تقهقر أولئك المارقون ولاذوا بالفرار ، وسجلت عليهم ذلك اليوم فضيحة الأبد والعار ، قاتلهم الله أنى يؤْفكون .

* * *

٢٧ ـ جريمة الإلحاد في الدين

ومما يتفرع من الكفر ويلازمه في حدود كثيرة ، الإلحاد في دين الله ، وهو ـ كما يقتضيه لفظه ـ الميلُ والانحرافُ عن جادة الحق إلى الباطل اعتقاداً وعملاً ، والتهاون والاستخفاف بما تدل عليه نصوص الكتاب والسُّنة . يقال : ألحد إلحاداً ، إذا مال عن القصد والاستقامة ، وألحد في دين الله وأسمائه وصفاته ، حاد عن الحق فيها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت : ٤٠] وقال : ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] فإلحادهم في الأسماء اشتقاقهم لأصنامهم أعلاماً من أسماء الله تعالى ، كاللات من لفظ الله ، والعُزَّىٰ من العزيز ، وإلحادهم في الآيات تكذيب أنها من عند الله كما قالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] أو صرفها عن معانيها الجلية بضروب من التأويلات الفاسدة ، وإلحادهم في الصفات كإطلاق وصف الربوبية والألوهية من صفات الحق التي

لا تنسب إلا إليه على غيره ، كما حكى القرآن عن اليهود والنصارى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] وقال : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

ومثلهم من جرى على شاكلتهم كالقاديانية والبهائية ، وهذا إلحاد مكشوف ينادي على نفسه بالبوار ، وأن أصحابه كفار من أهل النار .

* * *

٢٨ ـ أنواع من الإلحاد

ومن الإلحاد ما درج عليه بعض الفرق الضالة ، من تأويل اسم الصلاة والزكاة ، والصوم والحج ، والجنة والنار ، ونحو ذلك مما جاء في القرآن والسُّنة ، بتأويلات باطلة مضادة لما قصده الشارع من معاني هذه الأسماء ومانعةٍ من العمل بها كما أراد وأمر . وتأويل آيات القرآن بتأويلات يأباها المأثور من تفسيرها وتأباها بلاغته والقواعد الشرعية العامة ، بل تأباها العقول السليمة . كما أوضح ذلك ثقات المؤرخين فيما رَوَوْهُ عن الفرق الضالة كالبغدادي في « **الفَرْقِ بين الفِرَق** » وابن حزم في كتاب « **المِلَل والنِّحَل** » وغيرهما .

ومن الملاحدة : الإسماعيلية والباطنية والقرامطة وغلاة الشِّيعة ، وكلهم مارقون عن الإسلام مروقاً ظاهراً لا شك فيه .

وأغلب هذه الفرق حين عجزوا عن تحريف القرآن وتبديله كما حُرِّفت الكتب السماوية السابقة بأيدي الأحبار والرهبان ، فلم يستطيعوا أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه آية أو كلمة أو

حرفاً ، لضمان الله تعالى حفظه من ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، لجؤوا إلى تأويله حَسَب أهوائهم ، تلك التأويلات الباطلة كيداً للإسلام والمسلمين ، وابتغاء الفتنة في الدين ولكن الله لا يهدي كيد الخائنين ، فقد قيض الله تعالى لدينه وشريعته وكتابه وأحاديث رسوله أئمةً ثقات في كل قرن نفوا عن كل ذلك زيف المبطلين ، وتحريف الغالين بما بحثوه ودوَّنوه وأوضحوه ونقلوه عن صاحب الرسالة ﷺ وعن أصحابه والتابعين وأئمة المسلمين ، وبما حققوه من المباحث اللغوية والحقائق الشرعية ، وبما محَّصوه من الأحاديث النبوية تمحيصاً وافياً ودقيقاً بذلوا فيه أقصى الجهد والطاقة . فكانت علومهم وأعمالهم نبراس هداية ومصباح نور أضاء العالم الإسلامي كله وأنار الطريق لمن يقصد العلمَ والعملَ ومعرفةَ كتاب الله والأحاديث النبوية ، وكان ذلك حجة داحضة لمزاعم أولئك المحرفين المؤوِّلين .

فليعتمد المسلمون في دينهم ، وفي العمل بشريعتهم وفي فهم نصوصها وأحكامها على ما أوضحه هؤلاء الأئمة وبينوه .

وليحذر المسلمون أشد الحذر من أولئك المبتدعين

المارقين وتأويلاتهم الزائفة التي ينشرونها بين العامة ، فإنها جميعها فتن وضلالات .

ومن الإلحاد ما درج عليه حديثاً بعض الكاتبين في التفسير . خالوا فتخيلوا أنهم على حظ من العلم يتيح لهم تفسير القرآن على نحو جديد لم يعرفه القدامى من المفسِّرين ، ولقَّبوا أنفسهم بالمجدِّدين فأوَّلوا سجود الشمس بدورانها ، والملائكة والجن بقوى مسخرة ، والطير الأبابيل بمرض الجدري ، ونحو ذلك بحجة أنهم لم يبصروا سجود الشمس ولا وجود الملائكة والجن ، ولا هذا الطير في عالم الشهادة . وما دام الأمر كذلك يجب صرف الكلام عن ظاهره وحمله على هذه المعاني المزعومة التي لم تتسع عقولهم لغيرها . وغاب عنهم أن عدم رؤية الشيء بالحاسة لا ينفي وجوده ، وكم في الوجود من أشياء لا ترى بالعين وإنما ترى آثارها كالأرواح ، والكهرباء ، والطاقات ونحوها مما وراء المادة . كما غاب عنهم ما قاله أئمة التفيسر في قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : ٦] وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : ٤٩] وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا

وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴾ [الرعد : ١٥] وما جاء من الآيات والأحاديث في عالم الملائكة وعالم الجن ، وما قاله المفسرون عن الملائكة وحقيقتهم ، والجن وحقيقتهم . وكلام الملائكة مع ربهم ، والجن مع النبي ﷺ ومع بعضهم البعض ، وعن الطير الأبابيل في سورة (الفيل) . وفيه ما يشفي العلة ويروي الغُلة ويريح من ذلك العناء ، وكأنِّي بهؤلاء يجحدون وجود الملائكة والجن في العالم ، وذلك بريد الكفر الصريح .

* * *

٢٩ ـ تحذير من المجازفة بالتكفير

وٱعلم أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد في أدائه من الحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا اقتضى الأمر المجادلة يجب أن تكون بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] وذلك أدعى إلى القبول وأقرب للحصول على المأمول ، ومخالفته خطأ وحماقة .

فإذا دعوت مسلماً يصلي ، ويؤدي فرائض الله ، ويجتنب محارمه ، وينشر دعوته ، ويشيد مساجده ، ويقيم معاهده ، إلى أمر تراه حقاً ويراه هو على خلافك ، والرأي فيه بين العلماء مختلف قديماً إقراراً وإنكاراً ، فلم يطاوعك في رأيك ، فرميته بالكفر لمجرد مخالفته لرأيك ، فقد قارفت عظيمة نكراء ، وأتيت أمراً إدًّا ، نهاك عنه الله ودعاك إلى الأخذ فيه بالحكمة والحسنى .

وقد انعقد الإجماع على منع تكفير أحد من أهل القبلة إلا

بما فيه نفي الصانع القادر جل وعلا ، أو شرك جلي لا يحتمل التأويل ، أو إنكار النبوة ، أو إنكار ما عُلِم من الدين بالضرورة ، أو إنكار متواتر أو مجمع عليه ضرورة من الدين .

والمعلوم من الدين ضرورة كالتوحيد والنبوات وختم الرسالة بمحمد ﷺ ، والبعث في اليوم الآخر ، والحساب ، والجزاء والجنة والنار ، يكفر جاحده ، ولا يُعْذَر أحد من المسلمين بالجهل به إلا مَن كان حديث عهد بالإسلام ، فإنه يعذر إلى أن يتعلمه ثم لا يعذر بعد .

والمتواتر : الخبر الذي يرويه جمع يُؤمَنُ تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم إما من حيث الإسناد ، كحديث : « من كذب عَلَيَّ متعمِّداً فليتبَوَّأ مقعده من النار »[1] ، وإما من حيث الطبقة كتواتر القرآن ، فإنه تواتر على البسيطة شرقاً وغرباً ، درساً وتلاوة وحفظاً ، وتلقَّاه الكافة عن الكافة ، طبقة عن طبقة ، فلا يحتاج إلى إسناد .

وقد يكون تواتر عمل وتوارث ، كتواتر العمل على شيء

---

(١) رواه نحوٌ من سبعين صحابياً ، وأخرجه الستَّةُ ، وأحمد والبيهقي والطبراني والبزار وأبو يعلى .

من عصر النبوة إلى الآن ، أو تواتر علم كتواتر المعجزات ، فإن مفرداتها وإن كان بعضها آحاداً ، لكن القدر المشترك منها متواتر قطعاً في علم كل إنسان مسلم .

وإن الحكم على المسلم بالكفر - في غير هذه المواطن التي بيّناها - أمر خطير ، وفي الحديث : « أَيُّما رجل قال لأخيه : يا كافر ، فقد باء بها أحدهما »[1] ، ولا يصح صدوره إلا ممن عَرَف بنور الشريعة مداخلَ الكفر ومخارجه ، والحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان في حكم الشريعة الغراء ، فلا يجوز لأي إنسان الركض في هذا الميدان والتكفير بالأوهام والمظان دون تثبُّت ويقين ، وعلم راسخ متين ، وإلا اختلط سيلها بالأبطَح ولم يبقَ مسلم على وجه الأرض إلا القليل .

كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصي مع الإيمان والإقرار بالشهادتين ، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « ثلاث من أصل الإيمان : الكف عمن قال : لا إلـه إلا الله ، ولا نكفره بذنب ، ولا نخرجه عن الإسلام بعمل . والجهادُ ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتلَ آخرُ أمَّتي

---

(١) رواه البخاري (٥٦٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

الدَّجالَ ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . والإيمان بالأقدار »[1] .

وكان إمام الحرمين يقول : (لو قيل لنا : فصِّلوا ما يقتضي التكفير من العبارات مما لا يقتضي لقلنا : هذا طمع في غير مطمع . فإن هذا بعيدُ المدرك وَعْرُ المسلك ، يُسْتَمَد من أصول التوحيد . ومن لم يحط علماً بنهايات الحقائق لم يتحصَّل من دلائل التكفير على وثائق) .

لذلك نحذِّر كل التحذير من المجازفة بالتكفير في غير المواَطن السابق بيانها لأنه جد خطير . والله الهادي إلى سواء السبيل ، وإليه المصير .

* * *

(١) رواه أبو داود (٢١٧٠) عن أنس رضي الله عنه .

٣٠ ـ حرمة المسلم ومكانته

واْعلم أن الإسلام جامعة كبرى للمسلين ، تربط الشرقيَّ منهم بالغربي ، والأسودَ بالأحمر ، جمعت أوزاعَه رابطتُه وألَّفتْ بين أشتاتهم أخوَّتُه ، فكانوا به كالجسد الواحد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وكالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً . تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد واحدة على مَنْ سواهم ، ويهتم القاصي منهم بالداني ، ويفرح كل منهم لما نال إخوانه من خير وهناء ، ويحزن لما نابهم من شر وعناء ، ويدعو كل واحد لإخوانه بظهر الغيب وفي المجامع وعلى درج المنابر ، ويدعو على أعداء الإسلام من كل باغٍ وفاجرٍ ومفسد وكافر .

وهو خير شعار للمسلم ؛ به يُشرَّف ويعتز في كل موطن ، ويغضب أشد الغضب إن غُمِز إسلامُه أو مُسَّ دينُه ، ويبذل في صونه وحمايته نفسه ونفيسه ؛ لأنه أعز جوهر لديه ، وأعظم نعمة منَّ الله بها عليه ، كما قيل :

نحن في رَوح وراحة　　وحُبـورٍ واستـراحـةْ
نعمـة الإسـلام أعلـى　　نعمـةٍ حلـت بسـاحـةْ

ممثلـة فـي كلمتـي الشهـادة (لا إلـٰـه إلا الله محمـد رسول الله) ، معصوم بها دمه وماله ، سعيد بها حاله ومآله ، مرعية بها حقوقه وحدوده ، نافذة بها عقوده وعهوده .

لهذا وجب على المسلمين الاتحاد والتآلف والتعاون والتناصر ، والوقوف صفاً واحداً في وجه أعداء الإسلام وكائديه ومبتغي الشرِّ لأهله ، والتضحية بالنفوس والأموال في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز الإسلام وأهله في كل مكان .

* * *

٣١ ـ سِبَابُ المسلم فسوقٌ وقتاله كفر

[متفق عليه ، من حديث ابن مسعود]

ولأجل ما بيَّنا كانت كراهة المسلمين محرَّمةً ، ومقاطعتهم ومدابرتهم محرَّمة ، وكان سِبَاب المسلم فسوقاً وقتاله كفراً إذا استُحِلَّ .

وكفى رادعاً في هذا الكتاب حديث سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه في سَرِيَّته إلى « بني جذيمة » يدعوهم إلى الإسلام ، فلما انتهى إليهم تلقَّوه فقال لهم : أسلموا ، فقالوا : نحن قوم مسلمون ، قال : فأَلقوا سلاحكم وانزلوا ، قالوا : لا ، والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل ، ما نحن بآمنين لك ، ولا لمن معك ! قال خالد : فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا ، فنزلت فرقة منهم ، وتفرقت بقية القوم . وفي رواية : انتهى خالد إلى القوم فتلقَّوه ، فقال لهم : ما أنتم ؟ أي : أمسلمون أم كفَّار ! قالوا : مسلمون قد صلَّينا وصدَّقنا بمحمد ﷺ وبنينا المساجد في ساحتنا وأذَّنَّا فيها . وفي لفظ لم

يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا . فقالوا : صَبَأْنَا صَبَأْنَا[1] . قال : فما بالُ السلاحِ عليكم ! قالوا : إنَّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح . قال : فضعوا السلاح . فوضعوا ، فقال استأسروا . فأمر بعضهم فكتَّف بعضاً وفرَّقهم في أصحابه ، فلما كان السَّحَر ، نادى منادي « خالد » : مَنْ كان معه أسير فليقتله . فقتل « بنو سليم » مَنْ كان معهم وامتنع المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم وأرسلوا أسْرَاهُم . فلما بلغ النبيَّ ﷺ ما فعل خالد . قال : (اللهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد) قال ذلك مرَّتين[2] .

وقد يقال : إن سيدنا خالداً فَهِمَ أنَّهم قالوا ذلك على سبيل الأنَفَة وعدم الانقياد إلى الإسلام ، وإنما أنكر عليه ﷺ العجلة ، وعدم التثبت من أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم « صَبَأْنَا » وقد قال ﷺ : « نِعْمَ عبدُ الله . . خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلَّه الله على الكافرين والمنافقين »[3] . وكذلك قصة سيدنا أسامة بن زيد حِبِّ رسول الله وابنِ حِبِّه ،

---

(١) صَبَأْنَا : أي رجعنا عن ديننا

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الترمذي (٣٧٨١) .

فيما رواه عنه البخاري ، عن أبي ظبيان ، قال : (سمعت أسامة بن زيد ، يقول : بعَثَنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبَّحنا القوم ، فهزمناهم ولحقت أنا وَرجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه ، قال : لا إلـه إلا الله ، فكفَّ الأنصاري عنه ، وطعنته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبيَّ ﷺ ، فقال : « يا أسامة ، أقتلتَه بعد ما قال : لا إلـه إلا الله ؟ » قلت : كان متعوِّذاً ، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت ذلك اليوم) . وفي رواية أخرى ، أن رسول الله قال له : « ألا شققت عن قلبه فتعلم أصادق أم كاذب ؟ فقال أسامة : لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إلـه إلا الله »[1] .

وقد سئل علي رضي الله عنه عن المخالفين له من الفِرَق : (أَكُفَّارٌ هُمْ ؟ قال : لا ، إنهم من الكفر فرّوا . فقيل : أمنافقون هم ؟ فقال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، فقيل أي شيء هم ؟ قال : قوم أصابتهم الفتنة فعموا وصمُّوا) .

ونعم ما قاله بعض الأئمة العارفين في معيار المؤمن : إن

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

الصفات كلها المحمودة والمذمومة في طبع كل إنسان ، لكن الصفـات المحمـودة فـي حـق المـؤمـن مطلقـة ، والصفـات المذمومة في حقه مقيَّدة . فإذا وُصِف المؤمن مثلاً بالإيمان فهو الإيمان بالله ورسوله ، وإن وصف بالشكر فهو الشكر لله ، وهكذا في سائر الصفات المحمودة . وإن وصف بالصفات المذمومة فهي مقيدة ، فإذا قلت : كافر مثلاً ، فمعناه كافر بالجبْتِ والطاغوت . وإن قلت : شحيح ، فهو شحيح بدينه . وهكذا سائر الصفات المذمومة إذا وصفتَ بها مؤمناً قيِّدها ، وأما الكافر : فهو بعكس المؤمن ، فالصفات المذمومة في حقه مطلقة ، والصفات المحمودة في حقه مقيدة . فإذا قلت : كافر فمعناه كافر بالله تعالى ، وإن قلت : شحيح فهو شحيح بما أوجب الله عليه . وإن وصفته بالأوصاف المحمودة وقلت : مثلاً مؤمن فهو مقيد يعني مؤمن بالجبْتِ والطاغوت ، وإن قلت : محسن فهو محسن للشيطان . وهكذا الأوصاف الحسنة إذا وصفتَه بها تقيدها .

* * *

٣٢ ـ مثل ضربه الله لكلمتي التوحيد والكفر

يقول تعالى مجده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٧] .

إن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ؛ فيتأكد الوقوف على الحقيقة ، ويصير الحس مطابقاً للعقل ، وذلك هو النهاية في الإيضاح . ولضرب المثل أثناء الخطاب والإرشاد أعظم وقعٍ في النفوس وتأثيرٍ في القلوب ، ولذلك يألفه الناس ، ويجري بينهم ويشيع في أحاديثهم . ألا ترى أن الترغيب في الإيمان والتوحيد إذا كان مجرداً عن ضرب المثل لم يتأكد وقوعه في

القلب كما يتأكد إذا مُثِّلَ بالنور أو بشجرةٍ طيبة . وإذا كُرِّه في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول ، كما يتأكد إذا مُثِّل بالظلمة أو بشجرة خبيثة . ولهذا المعنى ضرب الله مثلاً لكلمة التوحيد والإيمان ـ وتفرُّع الأعمال منها وانبثاق الأنوار والمعارف عنها وبركتها ونموها ـ بشجرة طيبة في نباتها البهيّ وثمرها الشهيّ ﴿ أَصْلُهَا ﴾ الذي تقوم عليه ﴿ ثَابِتٌ ﴾ ضارب بعروقه في الأرض ، لا تزعزعه العواصف ولا تميل به المحاولات ، ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أعلاها ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ صاعد في جو السماء نمواً وحياة وزهواً ، ومع هذا ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا ﴾ أثمارها ﴿ كُلَّ حِينٍۭ ﴾ ، لا ينقطع جَنَاهَا ، كاملةً حسنةً ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ ﴾ وحسن تقديره وتهيئته ، وقد فُسِّرت في بعض الأخبار بالنخلة ؛ لتوفر شروط التمثيل بها في المقصود . فكذلك كلمة التوحيد والإيمان في قلب المؤمن طيبة في لفظها ومعناها لما تنبىء عنه بلفظها السديد من شرف التوحيد ، وتورثه في القلب من يقين يضيء زواياه فيطيب حسه ومعناه ، ﴿ أَصْلُهَا ﴾ الذي تقوم عليه معرفة الله جل وعلا وإفراده بالوحدانية والعبادة ، وذلك الأصل بصحة بيانه وقوة برهانه ﴿ ثَابِتٌ ﴾ في أعماق القلوب ، ضارب شعة أنواره إلى قرارة

اليقين والطمأنينة فيه . ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ الزهي نامٍ صاعدٌ إلى السماء سمواً وقربة ، ﴿ تُؤْتِي ﴾ هذه الشجرة الإيمانية ﴿ أُكُلَهَا ﴾ وثمارها الجنية التي تغذي الروح والجسم ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ ، يتجدد إنتاجها ، ويتنوع جَنَاها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ وحسن تَوَلِّيه ، أعمالًا صالحة وأخلاقاً حسنة وعلوماً نافعة .

فالمؤمن لا يزال يُرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار ، ولا يزال رابحاً على مولاه ، ما دامت شجرة إيمانه مُخضرَّةً وارفة[1] الأغصان . ولن يهلك على الله إلا هالك .

وقال تعالى في كلمة الكفر والشرك : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ في لفظها ومعناها المزوَّر المفترىٰ ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ في نباتها وثمرها ، ومثلوا لذلك بالحنظلة . ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ قُطِعتْ عروقُها واستؤصلت ﴿ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ إذ هي غير ثابتة الأصل ، ولا نابتة الفرع ، بل طافية سابحة على وجه الثرى ، ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ؛ لانبنائه على الزور والبهتان والشرك الذي ليس له حقيقة . وكيف تصح الشركة في شيء من الوجود وهو كله فعلُ واحدٍ قهّار ؟ .

---

(١) وارفة : أي نضيرة ظليلة .

وخبث الكفر والشرك يَسْري إلى حسّ الكافر ومعناه ، ولذلك صار نجساً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] أي ذوو نجس بقذر الكفر وفوق ذلك لا يتطهرون ولا يغتسلون من الجنابة ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم في كل حين . وعن ابن عباس : [نجاسة أعيانهم بالكفر] والله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً ، فلا يصعد للكافر كَلِمٌ ولا يُتَقَبَّل منه عمل ، وتكون أعماله يوم القيامة هباءً منثوراً ، كما قال تعالى في جزاء الكافرين : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] وهو كلمة التوحيد ، لا إلـه إلا الله ، ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قبل الموت بالهداية والتوفيق إلى طيِّب القول والعمل ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ في القبر . قال ﷺ : [المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾][1] ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ المشركين ، لا يهديهم إلى

(١) رواه الأربعة وأحمد والبيهقي ، عن البراء رضي الله عنه .

الجواب بالصواب في القبر ، ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ من التوفيق والخذلان والتثبيت وضده ، علماً منه بمن يستحقهما ، فلا مانع لما أعطى ولا رادَّ لما قضى ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ومن دعائه ﷺ : « يا مثبِّت القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك »(١) .

* * *

(١) رواه الترمذي عن أنس ، ورواه الحاكم عن جابر رضي الله عنهما . وفي رواية أخرىٰ « يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك » .

٣٣ ـ الشهود

الشهود هوالحضور والمعاينة . وعند القوم نظر خاص للبصيرة ، وقرب معنوي مقرون بعلم اليقين وحق اليقين . فمن حماه الله من حجاب البعد والغفلة ، وتقرَّب إلى الله بالإحسان المذكور في الحديث « أن تعبد الله كأنك تراه »(١) ، فقد دخل حضرة الشهود ، وتفيأ ظلها المدود ، وذاق بحاسة الوجدان طعم الإيمان ، ودخل جَنَّة المعرفة المعجَّلة قبل جَنَّة الرضوان : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

وإنما يرتفع الحجاب عن العبد بالتحلي بالأوصاف الحميدة بعد التخلي عن أضدادها الكثيفة ، فيصل حينئذ إلى مشاهدة جمال الحق في محاسن أسمائه وصفاته وبدائع صنعه ومخلوقاته ، والاطمئنان بذكره وشكره ، والتلذذ بطاعته ومناجاته ، والانشراح بصريح معرفته .

---

(١) رواه مسلم (٩) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال بعض أهل الشهود : « من عرف الله شهدَه في كل شيء ، فلا يستوحشُ من شيء ، ويستأنس به كلُّ شيء ، ويستأنس هو بكلِّ شيء ، ويشهد معنى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] عِياناً ، ويفهم معنى قوله ﷺ : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطل »[١] ، وتشرق على قلبه لمعة من قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] ويرتفع عنه اشتباه معنى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] وينطق بالحق ؛ لأن الحق يكون حينئذ سمعه وبصره ولسانه الذي ينطق به . ولنقف في رسالتنا هذه عند هذا الحد الأدنى من معاني الشهود ؛ لأنه مقام رفيع ومرتقىً صعب يعز على أمثالنا ، ويصعب على أفهامنا ، منشداً قول سيدي الحبيب الإمام « **عبد الله بن علوي الحداد** » رحمه الله ونفع به :

بشِّر فؤادَك بالنَّصيبِ الوافي ... من قُربِ ربِّك واسع الألطافِ

الواحدِ الملكِ العظيمِ فلُذْ بهِ ... واشربْ من التوحيدِ كأساً صافي

واشهَدْ جمالًا أشرقت أنوارُهُ ... في كل شيءٍ ظاهراً لا خافي

---

(١) رواه البخاري (٣٥٥٣) ومسلم (٤١٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقول سيدي الحبيب الإمام « **علي بن محمد الحبشي** » رحمه الله ونفع به :

طُـف دوامـاً بجنـب تلـكَ الخيـام
وارتشفْ في الهَوَى كؤوسَ المُدَامِ
وتخلَّـصْ عـن السِّـوَىٰ وتَـأَدَّبْ
فـي مقـامٍ مـا بعـدَه مـن مقـامِ
إنَّ فـي حضـرةِ الشهـودِ مُـدَامَـاً
تسلـبُ العـاشقيـنَ طيـبَ المَنَـامِ
إنَّ فـي حضـرةِ الشهـودِ مُـدَامَـاً
تُـدْخِـلِ الشـاربيـنَ بحـرَ الهيَـامِ

* * *

٣٤ ـ الفكــر

ولما كان الفكر كُحلَ البصيرة ، وهو كما قال « **السري السقطي** » : خير من عبادة سنة ، وما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك فتحطها في الجنة ، رأيت أن أقتبس شيئاً من أضوائه ينير الطريق لطالب التحقيق ، فأقول :

الفكر هو تصرف القلب وجولانه في معاني الأشياء ليدرك المطلوب ، وبه يُغَاص على دُرِّ الحقيقة . وإذا سلِمَ الفكر من الشوائب ورَدَ مناهل التحقيق ، ويقال : هو سراج القلب ، يرى به خيره وشره ، ومنافعه ومضاره ، وذلك لأن القلب الخالي عن الفكر خالٍ من النور كالبيت المظلم ، وإذا خلا عن النور لا يكون فيه إلا الجهل والغرور .

وعن ابن عباس وأبي الدرداء رضي الله عنهما : (فِكْر ساعة خير من قيام ليلة) وقال الحسن بن أبي الحسن : (الفكر مرآة المؤمن ينظر فيها إلى سيئاته وإلى حسناته) وفي « تفسير » ابن عطية : حدثني أبي عن بعض علماء المشرق ،

قال : كنت بائتاً في مصر بمسجدٍ ، فصليت العتمَة ، فرأيت رجلاً قد اضطجع مسجًّى بكسائِهِ حتى أصبح ، وصلينا تلك الليلة وسهرنا ، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلَّى مع الناس فاستعظمتُ جرأته في الصلاة بغير وضوء ، فلما فرغت من الصلاة خرج فتبعته لأعظه فلما دنوتُ منه سمعته يقول :

منْسَجرُ الجسم غائبٌ حاضرُ مُنْتَبِهُ القلْبِ صامتٌ ذاكرُ
منقبضٌ فِي العيونِ مُنبَسِطٌ كذاكَ من كانَ عَارفاً فاكرُ
يبيتُ في ليْلِهِ أخا فِكَرٍ فهو مَدَى الدَّهرِ نائمٌ ساهرُ

فانصرفت عنه . قال : فقلت : إنه ممَّن يعبد الله بالفكر .

* * *

٣٥ ـ أنواع الفكر

ثم إن الفكر أنواع : **ففكر الزاهدين** في فناء الدنيا وقلةِ وفائها لطلّابها ، فيزدادون بالصبر زهداً فيها .

وفكر العابدين في جميل الثواب ، فيزدادون نشاطاً عليه ورغبة فيه .

وفكر العارفين في الآلاء والنعماء وأسرار الصفات والأسماء ، فيزدادون محبة للخالق جل وعلا .

وفكر العامة في البراهين والأدلة لتحصيل التصديق .

وعلا كعب مَنْ جمعها كلّها .

ومهما تيسّر الفكر فهو من أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله وزيادة التعلق والمحبة ، إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ، ولا تنكشف عظمة الله تعالى إلا بمعرفة صفاته وقدرته وعجائب أفعاله ، فيحصل من الفكر المعرفة ، ومن المعرفة التعظيم ، ومن التعظيم المحبة .

قال الإمام « **الغزالي** » قدَّس اللهُ سرَّه : (من طال فكره في معرفة الله وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير . . فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه لثباته ، لقوة فرحه وسروره) .

وقال سيدي قطب الإرشاد الحبيب « **عبد الله بن علوي الحداد** » في « **رسالة المعاونة** » :

[. . وينبغي أن يكون لك ورد من التفكُّر كل يوم وليلة ، تعيِّن له ساعة أو ساعات ، وأحسن الأوقات للتفكر أفرغها وأصفاها وأجداها في حضور القلب كجوف الليل .

وقال : أعلم أن صلاح الدين والدنيا موقوف على صحة التَّفكر ومن أُعطي حظاً منه أخذ بحظٍّ وافرٍ من كل خير ، وقد ورد : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وقال عليٌّ كرم الله وجهه : لا عبادة كالتفكر ، وقال بعض العارفين : الفكرة سراج القلب فإذا ذهبتْ فلا إضاءة له .

ومجاري الفكر كثيرة فمنها ـ وهوأشرفها ـ أن تتفكر في عجائب ـ مصنوعات ـ الله الباهرة ، وآثار قدرته الباطنة والظاهرة ، وما بثَّ من الآيات في ملكوت الأرض والسموات ، وهذا التفكير يزيد في معرفتك بذات الله وصفاته

وأسمائه ، وقد حثَّ الله عليه بقوله : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [يونس : ١٠١] وأنت من عجائب المصنوعات فتَفكَّر في نفسك ، قال الله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ ـ ٢١] .

وينبغي أن تتفكر في آلاء الله وأياديه التي أوصلها إليك ، وفي نِعَمِه التي أسبغها عليك . قال الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ ﴾ [النحل : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل : ٥٣] .

وثمرة هذا التفكر امتلاء القلب بمحبة الله ، والاشتغال بشكره باطناً وظاهراً كما يحبه ويرضاه .

وينبغي أن تتفكر في إحاطة علم الله بك ، ونظره إليك ، واطلاعه عليك ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] الآية ، وهذا التفكر ثمرته أن تستحي

من الله أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

وينبغي أن تتفكر في تقصيرك في عبادة مولاك ، وتعرضك لسخطه بإتيانك ما عنه نهاك ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الإنفطار : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] .

وهذا التفكر يزيد في خوفك من الله ، ويحملك على لوم نفسك وتوبيخها ، ومجانبة التقصير ، وملازمة التشمير .

وينبغي أن تتفكر في هذه الحياة الدنيا وكثرة أشغالها ، ووبالها ، وسرعة زوالها ، وفي الآخرة ونعيمها ودوامها . قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٩ ـ ٢٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٦ ـ ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] . وهذا التفكير يثمر لك الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة .

وينبغي أن تتفكر في نزول الموت وحصول الحسرة والندامة بعد الفوت ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [المنافقون : ٩] ، إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ ﴾ [المنافقون : ١١] وفائدة هذا التفكير قصر الأمل ، وإصلاح العمل ، وإعداد الزاد ليوم المعاد .

وعليك أن تتفكر في الأخلاق والأعمال التي وصف الله بها أولياءه ، وأعداءه ، وفيما أعدَّ للفريقين في العاجل والآجل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ ـ ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ ـ ٧] الآية ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ

وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ ـ ٤] . وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : ٥٥] الآية ، وقال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٧ ـ ٦٨] وقال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧١ ـ ٧٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ٧ ـ ١٠] .

وثمرة هذا التفكر محبة السُّعَداء ، وحمل النفس على العمل بأعمالهم ، والتخلق بأخلاقهم .

وإن ذهبنا نتتبع مجاري الفكر خرجنا عن مقصودنا من الإيجاز ، وفيما أشرنا إليه كفاية لمن يفكر .

وينبغي أن تستحضر عند كل نوع من التفكر ما يناسبه من الآيات والأخبار والآثار ، كما أشرنا إلى ذلك عند كل نوع .

وإياك والتفكير في ذات الله تعالى وصفاته من حيث تطلب الماهية وتعقل الكيفية . فقلّما وَلِعَ بذلك أحد إلا هوى في مهاوي التعطيل ، أو تورَّط في ورطات التشبيه . وقد روي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ : « تفكروا في آلاء الله ، ولا تتفكروا في الله ، فإنكم لم تقدروه حق قدره »[1]] انتهى . . من « **رسالة المعاونة** » ، وهو فصل جامع ممتع .

* * *

---

(١) رواه أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وللبيهقي في « شعب الإيمان » رواية أخرى عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه .

٣٦ ـ أنموذج من التفكُّر في الآلاء

خلق الله الإنسان مركَّباً من جسم وروح ، وجعل الجسم بطبيعته محتاجاً إلى الغذاء بما به قوام حياته ونموُّه ، وخصَّه بالطيبات من الرزق كالحنطة والأرز والذرة ، وفضَّلها على الشعير والقصب وأقوات البهائم ، فكما فضَّله فضَّل قُوْتَه . وخلق السنبلة ذات ساق طويل ، فالقصبة يكون حبها قوتاً لك ، وهي تكون تِبْناً وأكلاً للحيوان المسخَّر لك . وكذا خلق الحنطة حباً صغاراً يسهل طحنها ، ولو خلق حب الحنطة قدر البيضة والتفاحة لصعب طحنها والانتفاع بها .

وسخر لك الحيوان ، فخلق الأنعام مذلَّلة لك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل : ٨٠] ، وسقاك مما في بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وأعدمها العقول لئلا تنازع أربابها وتمتنع عليهم ، وعوَّضها عن العقول بالأحاسيس الجيدة التي

ربما أربت على إحساس البشر ، فجعل ما أعطاها من الإحساس كافياً لنيل المصالح التي تراد منها ، إحكاماً منه لصنعته وإتقاناً لأمر خليقته وعُظْم ربوبيته . وهيَّأ لك الأثمار والفواكه والأزهار دانية زاهية في أشجارها ، تناديك بلسان حالها : تَنَاوَلْني وكُلني وشُمَّ رائحتي ، فإني مهَيَّأة لك لا لغيرك ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٤] .

وهكذا حُكْم كل شيء في الوجود من مصنوعاته مبني على الحكمة والإتقان ، لا يخلو شيء من حكمة ولا يَعْرَىٰ عن عبرة ، فتبارك الله أحسن الخالقين : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٣] .

* * *

٣٧ ـ تذكرة ومجاهدة

قد ينتهي الفكر بالمؤمن إلى غوامض في التوحيد وأغواره وأسراره الغيبية وحقائقه الخفية ، ويرى اضطراب العلماء في آيات الصفات وأحاديثها المروية ، فيقف عندها باهتاً متحيراً لا يهتدي لحلها وإماطة اللثام عن وجهها ، وحينئذ ينبغي له ـ كما قال بعض العارفين ـ أن يفرَّ ويلجأ إلى مولاه ويفوِّض علمَها إليه كما هو مذهب السلف الصالح ، ويفكر كيف كان افتقاره في إنشاء طينته الإنسانية إلى خلقه له وتصويره ، فكيف لا يكون مفتقراً في هداية حقيقته الأصلية إلى لطفه وتنويره ! ولا يجعل مستند إيمانه نتائج الفكرة البشرية ، بل يفرُّ من إشكاله إلى الله ورسوله ، ويسأل مولاه أن يمنَّ عليه بمدد من عنده ، يغنيه به عن كل شيء سواه ، حتى لا يشهد في ذلك إلا إياه ، ويقول : رب أعوذ بك أن يكون إيماني بك وبما أنزلت مستفاداً من فكرة مشوبة بالأوصاف النفسية ، أو مستنداً إلى عقل ممزوج بأمشاج من الطِّينة البشرية ، بل من نورك المبين

ومددك الأعلى ، نور نبيّك المصطفى وبركاته . وهناك السكينة وبرد الطمأنينة ، وتلك طريقة العبد الموفَّق عند اضطراره وتضارب أفكاره ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾ [الإنسان : ٢٩] أي اتَّخذ إلى معرفته ورضاه وجواره في جنته طريقاً معنوياً بتقوية إيمانه ويقينه بالذكر والفكر .

وحسِّياً بالجد في طلب العلم النافع واعتناق الأعمال الصالحة وهو **الشريعة** .

وبالإخلاص والأدب ومجالسة أهل المعرفة وهو **الطريقة** .

فيوصله إلى برد اليقين وهو **الحقيقة** ، وذلك منتهى أمل السالكين .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ففي هذه الآية الكريمة وعدٌ من الرب الكريم بهداية سبله الموصِّلة إلى رضاه والقرب منه للمجاهدين فيه ، أي : من أجله ولوجهه خالصاً . وهذه الهداية هي نتيجة المجاهدة وميراث حُسْن الاتِّباع ، وهي المكاشفة بصريح الحق ، والمبادأة بأشياء من عالم الغيب .

وقبلها هداية البيان ، يشير إليها قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ

﴿ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] وهداية التوفيق، المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور : ٣٥] .

قال سيدي الإمام الحداد :

وجاهِدْ تشاهد واغنم الوعد بِالهُدىٰ
هُدًى نَصُّهُ في العنكبوتِ بآيةِ

والمجاهدة مفاعلة بين اثنين ، فهي بين الإنسان ونفسه ، يحملها على ما ينفعها حالًا ومآلًا ، ويوجب لها الفوز والسعادة ، وهي تجاهده على ما تهواه بحسب جِبِلَّتها من ضد ذلك . وبينه وبين غيره من الأعداء ـ وأقواهم الشيطان الرجيم ـ بالتحصن منه ، وبقتال الكفار ، ونصر الدين ، وردّ المبطلين ، وقمع الظالمين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولكون المجاهدة مع النفس الأمارة بالسوء التي هي بين جنبي الإنسان أشدُّ أعدائه كما ورد : « أعدى عدوِّك نفسُك التي بين جنبيك »[1] كان جهادها هو الجهاد الأكبر ، وجهاد

(١) رواه البيهقي في كتاب « الزهد » عن ابن عباس رضي الله عنهما .

العدوِّ هو الجهاد الأصغر . وجاء في أثر : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[1] لذلك يستعان على غلبتها وإسلاس قيادها بترويضها على أربعة أشياء : جمعها سيدي الحداد في بيت وهو :

والنفـــسُ رُضْهـــا بـــاعتـــزالٍ دائـــمٍ

والصمتِ مع سهرِ الدُّجَى وتَجَوُّعِ

فحريٌّ بمن اقْتَصَدَ في الطعام بقدر القوام ، وفي المنام بقدر الاستجمام ، وفي الكلام بمقتضى المقام ، وفي خلطة الأنام خشية المذامّ ، أن يملك على نفسه الزمام ، ويسلك بها مسلك القوم الكرام ، على نهج الشريعة والطريقة والحقيقة المستفادة من تلك الآية الكريمة .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في كتاب « الزهد » عن جابر رضي الله عنه .ورواه الخطيب ، والديلمي عن جابر ـ أيضاً ـ رضي الله عنه ، بلفظ : « قَدِمْتُم خير مَقْدَم وقَدِمْتُم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : مجاهدة العَبْدِ هَوَاهُ » .

٣٨ ـ الشريعة والحقيقة

ومن أحسن ما رأيت في الكلام عليها جواباً لسيدي الإمام **أبي بكر بن عبد الله العيدروس** ، على سؤال ورد عليه من بعض الفقهاء ، يسأله عن الفرق بين **الشريعة والحقيقة** ، فردَّ عليه رداً كافياً أحببت نقله برمته ، قال رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم

[الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه انبعاث القصد للقاصدين وهو المقصود . خلق لعبده إرادة بإرادته ، وأثبته حتى أقام عليه حجته ، وبإثباته له أقام عليه أمره ونهيه وجازاه على مقتضى سعيه ، فناداه : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] وتارة أقام نفسه ونفاه ، فقال : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠] فحصلت الحَيرة ، وعميت الأبصار والبصيرة ، فوفّق من يشاء من عباده بمكنون علمه ، فوقف مع **الشريعة** بجسمه ومع **الحقيقة** بقلبه .

فالعلم المتجلي على الجسم : علم ظاهر وهو علم

الشريعة ، والعلم المتجلي على القلب : علم باطن وهو **علم الحقيقة** ، فأقام ظاهر الإسلام على أركانِ القائمُ بها جوارحُ الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيانٍ القائمُ بهما تصميم الجَنان . ولكن لَمَّا خفي عن الأسماع الحسية ما بالقلب جُعل لهما ترجمان وهو اللسان فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة ، وبقيا كقول الشاعر :

رقَّ الزجاجُ ورقَّت الخمرُ   فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنّما خمرٌ ولا قَدَحُ   وكأنَّما قدحٌ ولا خمرُ

فمن هنا قال أهل الشريعة ، الواقفون مع العلم الخالي عن العمل : (ما سوى الشريعة كفر) فصدقوا من وجه وأخطؤوا من وجه .

وقال المترسمون بألفاظ الحقيقة ، العارون عن التحلي بها : (ما سوى الحقيقة شيء) فصدقوا من وجه وأخطؤوا من وجه .

فناداهم أهل الجمع من أرباب الدعوة : أما سمعتم شاووش التوفيق على قارعة الطريق ينادي : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] فالاجتهاد هو الشريعة ، وهو تعاطي أقوال الشريعة بالأعمال ليهديه سبله وهو

الحقيقة . فمن هنا لم تعرفوا الحقيقة لعدم استعمالكم الشريعة .

ويا أيها المترسمون بألفاظ الحقيقة لم تحصل لكم الهداية إلا بالاجْتهاد على أوامر الشريعة واجْتناب مناهيها ، كأنكم جاهلون ما جمع الله لعبده في فاتحة الكتاب ، إذ قال له بعدَ أن عرَّفه : كيف يحمده وأنه يستحق عليه الحمد بربوبيته على جميع العالمين ، وخَصَّ بلفظة الرّبّ لما فيها من غاية الشفقة واللطف ثم آنسه به ، وعرَّفه به أنه له رحمن في الدنيا ورحيم في الآخرة . فجمح به جامح الرجاء ، فشمَّ منه تِيَه الطبع ، فقرَّعه بأنه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] . لأن حقيقة الملك العدل ، ويوم الدين يوم الجزاء ، فأقام له جناحَي الخوف والرجاء ، وعرَّفه كيف يطير بهما إليه . فقال له قلْ : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ [الفاتحة : ٥] وهو **الشريعة** . فلمَّا أقامه بالعبادة ظن أن له إرادة فكاد أن يخلد إلى الأرض بالعجب والرّياء والمنّ عليه . فأراد أن يعرفه أن طاعته من استعانته ، فقال له : قل : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] وهي **الحقيقة** ، فعَلِم العبدُ الموفّق حينئذ أن له إرادة بنفسه ، وأصلها من عند الله تعالى ، عند وارد الأمر والنهي لإقامة حدود الشريعة ،

فهذا مقام الاستقامة (قل الله ثم استقم) مع أمره ، مع اعتقادك أنه لولا توفيقه السابق وهداه اللاصق لما كان حقيقة ولا إرادة ، فانتفى منه المنُّ والعُجب ، وبقي منه وبه ، وهو سر القدرة ، وهو أول قدم في طريق الحقيقة ، وهو البقاء به والفناء عن نفسه ، فحينئذ رجع العبد الموفّق إلى الله ضرورة فلم يجد له إلا رضاه عليه ، ولا له سلَّم إلا بدعائه ، فبقي متحيّراً فقال له : قل : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ـ ٧] .

وعلى الجملة إنَّ **الشريعة** اتِّباعك أوامره وهو الإسلام والإيمان .

والحقيقة هي إقامتك بأمره كأنك تراه وهو يراك ، وهو مقام الإحسان .

وإن شئت قلت : **الشريعة** علم ، ومعلومها **الطريقة** وهي العمل ، وثمرتها الوصول إلى الله وهو **الحقيقة** .

وليس الوصول بسعي الأقدام ولا بقرب المسافة وبعدها ، وإنما سعيك إليه بتوفيقه ، وسعيه إليك برحمته ، عَلِمَ ذلك من علمه وجهله من جهله . وتحت هذا علم وفيٌّ وسر خفيٌّ ،

والناس في أضغاث أحلام ! اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . انتهى جواب سيدي الإمام **أبي بكر بن عبد الله العيدروس** ، على سؤالٍ حول الفَرقِ بين الشريعة والحقيقة .

* * *

٣٩ ـ كتبٌ قيِّمة في معالم السلوك

وقد شرح العلماء العارفون هذا الطريق ومعالم سلوكه في كتبهم الحافلة وسيرتهم الماثلة ، بما لا مزيد عليه ، وأفردوا لذلك مؤلفات مشهورة ، أذكر منها : « **قوت القلوب** » و « **إحياء علوم الدين** » و « **رسالة القشيري** » و « **عوارف المعارف** » وكتاب « **الزهد والرقائق** » لابن المبارك ، و « **حلية** » أبي نعيم ، و « **رياض الصالحين** » للإمام النووي ، و « **بستان العارفين** » له أيضاً ، وما اشْتملت عليه الصّحاح والمسانيد من فصول الرقائق ، مما في مسند الإمام أحمد ، وأدب **البخاري** ، و « **دلائل النبوة** » للبيهقي ، وكتب الإمام **الشعراني** والإمام **الحداد** ، وغيرها من كتب السِّيَر والمناقب التي تُصْلِح المرءَ بمجرَّد مطالعتها . جزاهم الله عن الأمة خير الجزاء .

* * *

٤٠ ـ الله « جلَّ وعلاَ »

الله عَلَم على الذات الواجب الوجود وما سواه فانٍ مستمد منه الوجود . لم يسمٍّ به غيرُه ، كما قال تعالى : ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم : ٦٥] وهو الاسم الأعظم ، الدال على الذات الجامعة للصفات الإلـٰهية كلها ، وجميع الأسماء شارحة له وراجعة إليه ومن صفته ونعته ، وإن تعددت الأسماء فالمقصود منها واحد وهو الله .

والأسماء كلها سرت في العالم سريان الأرواح في الأجساد ، فما من موجود دقَّ أو جلَّ ، علا أو سَفُل ، كثف أو لطف ، قلَّ أو كثر ، إلا وأسماء الله محيطة به حِسًّا ومعنًى .

واسْمُ الألوهية جامع لجميعها . فيقال : الله الرحمن ، الله الرحيم ، الله الخالق . . وهكذا ترجع إليه سائر الأسماء الحسنى والصفات العظمى .

ولا يتم عقد الإسلام إلا به ، ولا يقبل اسمٌ عوضاً ، ولا ذكر بدلًا عنه ، بأن يقال : لا إلـه إلا الغفار أو الرحيم أو

الجبار ، وإنما يقال : لا إلـٰه إلا الله ، وبذلك نطق القرآن والحديث ؛ لأنه أدلُّ على كنه المعارف الإلـٰهية واختص بها ، وهو بها أشهر وأتم وأظهر ، وبه سمَّى نفسه وتعرّف به إلى خلقه ، وأمرهم أن يدعوه به .

وقد تزاد بآخره ميم مشددة مفتوحة عوضاً عن حرف النداء ، فيقال : اللهمَّ بمعنى : يا الله . يدعى بذلك عند التوجه والابتهال . ولا يقال : يا اللهم إلا نادراً .

قال الشاعر العربي :

إنِّي إذَا ماحدَثٌ ألَمّا   أقولُ اللهمّ يا اللَّهُمَّا

والميم في « لسان العرب » من علامات الجمع فتفيد تضمن ما دخلت عليه لجميع الأسماء والصفات . ولذلك روي عن الحسن البصري قوله :(اللهم مجمع الدعاء) وعن النضر بن شميل : (من قال : اللهمَّ ، سأل الله بجميع أسمائه) وتعويض الميم من حرف النداء في لفظ الجلالة يقتضي قوة الهمة في الطلب والجزم به .

* * *

٤١ ـ ذِكْرُ الله تَعَالى

قد علم ذووالعقول السليمة أن الدنيا دار تحوُّل ، وطريق سفر إلى الدار الآخرة ، ولهذا سُمِّيت الحياة الدنيا ، أي القريبة المدة ، العاجلة الفناء ، وأول منازلها المهد وآخرها اللحد ، والغاية هي الجنة والنار . فالعمر مسافة السفر ، والسنون مراحله ، وأوقاته رأس ماله ، وأيّامه وميوله وشهواته وأغراضه قطّاع طريقه ، وربحه الفوز بلقاء الله والنعيم المقيم ، وخسارته بالحجاب عن الله والعذاب الأليم في جهنم .

فالمؤمن العاقل يجعل أنفاسه طاعة ويقطعها بذكر الله ، والغافل ولو عن نَفَس من عمره متعرض لحسرة لا نهاية لها وخسران لا تدارك له . ولهذا سبق المفردُون ؟ كما قال ﷺ : « سبق المفردون ، قالوا : يا رسول الله ، وما المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذَّاكرات . »[1] ، وهم المتخلون

---

(١) رواه مسلم (٤٨٣٤) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

عن الناس لذكر الله ، فأفردوا أنفسهم ـ عن الخلائق والأقران ـ لله عز وجل ، وتبتَّلوا إليه ؛ أي : انقطعوا وتفرَّدوا كما أحب ذلك وأمر رسولَهُ وأتباعَهُ بقوله : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٨] تنبيهاً على أن الذكر الدائم ، إنما يتهيَّأ بحسن التبتل والانقطاع إليه .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] أي تسكن وتطيب . والسكون يكون باليقين كما أن الاضطراب يكون بالشك ، فذكر الله تسكن به قلوب المؤمنين ، ويسكن فيها اليقين .

والذكر هو وجدان المذكور وحضوره بالقلب ، والتخلص من الغفلة والنسيان بمداومة حضور القلب ، وإعراب اللسان والخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة .

والذكر قرين الأعمال وروحها ، فانظر كيف قرنه بالصلاة التي هي أفضل العبادات ، وعلَّلها به في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه : ١٤] قال الإمام الحدَّاد من قصيدة :

وَاذْكُر إلـٰهَكَ ذِكْرَاً لَا تُفَارِقُهُ فإنمَّا الذِّكْرُ كالسُّلْطَانِ لِلْقُرَبِ

والذكر ركن الطريق ومفتاح التحقيق وسلاح المريدين

ومنشور الولاية ، قال تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وعنه عليه الصلاة والسلام : « يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه .. ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم »[١] ، وفي حديث آخر : « أنا جليس من ذكرني »[٢] ، وناهيك بمن كان الله جليسه . وهذه مزية للذِّكر خاصة وهي الحضور في الحضرة العلية ، والوصول إلى رتبة القرب ، بما عُبّر عنه في الحديث بالمجالسة والمعيَّة .

والذكر منزلة العابدين الكبرى التي منها يتزوَّدون ، وفيها يتَّجرون ، وإليها دائماً يتردَّدون . وقد جعل الله لسائر العبادات مقداراً وأوقاتاً ولم يجعل للذكر قدراً ولا وقتاً ، وأمر بالكثرة منه من غير تحديد ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤١] في جميع الأحوال : بالليل والنهار ، في البر والبحر ، والصحة والسقم ، والحضر والسفر ، والسر والعلانية ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله .

وفي « الصحيحين » : « مثل الذي يذكر ربه والذي

---

(١) رواه البخاري (٦٨٥٦) ومسلم (٤٨٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البيهقي وعبد الرزاق والديلمي .

لا يذكره مثلُ الحي والميِّت . »[1] .

وسأل أعرابي رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : « أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله »[2] .

وقال ﷺ : « ألا أُنْبِئُكم بخير أعمالكُم وأزكَاهَا عند مليكِكُم ، وأرفعِها في درجاتكم ، وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والوَرِقِ ، وخير لكم من أن تَلْقَوا عدوَّكم فتضربُوا أعْنَاقهم ويضربوا أعْنَاقَكُم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذِكْرُ اللهِ تعالى »[3] .

وعنه ﷺ : « إن لله ملائكةً يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تَنَادَوْا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يسبِّحونك ويكبِّرونك ويحمدونك ويمجِّدونك . فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله

---

(١) رواه البخاري (٥٩٢٨) ومسلم (١٢٩٩) عن أبي موسى رضي الله عنه .
(٢) رواه الطبراني وابن حبان والبزَّار .
(٣) رواه أحمد (٢٠٧١٣) والترمذي (٣٢٩٩) وابن ماجه (٣٧٨٠) والحاكم ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

ما رأوك ! قال : فيقول : وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيداً وتحميداً وأكثر تسبيحاً . قال : فيقول : فما يسألونني ؟ قال : يقولون : يسألونك الجنة . قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة . قال : فممَّ يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار . قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة . قال : فيقول : أشهِدُكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم »[1] .

وهذا الحديث يدل على فضل الاجتماع للذِّكْر والجهر به من أهل الذّكْر جميعاً ، لأنه قال : « يذكرونك » بصيغة

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الجمع ، وقال : « هم الجلساء » أي العاقدون مجالسهم للذكر والمتحدون عليه ، ولا يتفق ذلك إلا جهراً ، لأن المسِرَّ بالذكر لا يقصد مجالسة غيره ، والذاكر لنفسه على حدة لا يعد مجتمعاً مع غيره على الذكر كما يدل عليه حديث : « وأنا معه حين يذكرني . فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم » . فقابلَ بين السر والجهر في قوله : « ذكرني في نفسه » أي سراً ، وقوله : « في ملأ خير منهم » أي جهراً . وهل يكون الذِّكْر في الملأ إلا بالجهر علناً مع اجتماعهم عليه بصوت واحد ؟ وفي الحديث دلالة على أن الجهر بالذكر في الملأ من أنواع الذكر العالية المنوَّه بها في الملأ الأعلى من ربنا الجليل ، مع الملائكة المقرَّبين الذين يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون .

ووجه المناسبة لا يخفى بين الذاكرين في العالَم النزيه ، المجبولين على الطاعة والذكر، وهم الملائكة ، وبين الذاكرين في العالم الكثيف ، المجبولين على الفتور والغفلة ، وهم الآدميون . ومكافأتهم على ذلك بإلحاقهم في الرتبة بالملأ الأعلى وكفاهم بذلك شرفاً وفضلاً .

* * *

٤٢ ـ تلاوة القرآن من أفضل الذكر

ومن أفضل الذكر والأوراد الاشتغال بتلاوة كتاب الله ، بل هو أفضل الأذكار بعد كلمة التوحيد إلَّا ما ورد مقيَّداً بوقت ، فالأفضل إشغال ذلك الوقت به ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] .

وقال ﷺ : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضلَ مما أوتي فقد استصغر ما عظّمه الله »[١] .

وقال ﷺ : « قال الله : مَنْ شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل مما أعطي السائلين . وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه »[٢] وأخرج البيهقي من حديث النعمان بن بشير : « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن »[٣] وأخرج من حديث أنس : « نوِّروا منازلكم بالصَّلاَةِ

(١) رواه الطبراني ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .
(٢) رواه الترمذي (٢٨٥٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

وقِراءةِ القرآن »[1] ويحصل الثواب بقراءة القرآن بفهم وبغير فهم ، بخلاف غيره من الأذكار . والقرآن أعظم واعظ وأشد زاجر ومخوِّف عن ارتكاب معاصي الله ومحارمه ، وعن الاستخفاف بالقيام بأوامر الله ونواهيه . ففي بعض الآثار أن قارىء القـرآن إذا ارتكب المعاصي يناديه القرآن من جوفه : أين زواجري ، أين قوارعي ، أين مواعظي ؟ قال ميمون بن مهران رحمه الله : (إنَّ أحدَكم يقرأ القرآن وهو يلعن نفسه . قيـل لـه : كيـف ذاك ؟ قـال : يقـرأ (ألا لعنـة الله علـى الظالمين) وهو يظلم ، (ألا لعنة الله على الكاذبين) وهو يكذب !) .

وورد : (إن القرآن غريب في جوف الظالم)[2] فينبغي لكل مسلم ـ لا سيما مريد طريق الآخرة ـ أن يرتب له وِرداً من القرآن ليلاً ونهاراً ، وإن قَلَّ ، مع مراعاة الترتيل والحضور ؛ لما في ذلك من جزيل الثواب ، ومناجاة رب الأرباب . وأما

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » عن أنس رضي الله عنه .

(٢) « الغرباء في الدنيا أربعة : القرآن في جوف ظالمٍ ، ومسجدٌ في نادي قومٍ لا يُصلَّىٰ فيه ، ومصحف في بيتٍ لا يقرأ فيه ، ورجلٌ صالح مع قوم سوءٍ » رواه الديلمي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الأئمة الذين صفت قلوبهم وانشرحت صدورهم لفهم خطاب الله تعالى ولذة مناجاته فلهم في تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً المورد الأسنى والمشرب الأعذب الأهنى ، فكان القرآن العظيم ربيعَ قلوبهم ، وجلاء كروبهم وخير ما يتنعمون به في الدنيا ، وبلغ من إمعانهم في تلاوته أن منهم من يختم في اليوم والليلة ثمان ختمات ، أربعاً بالليل وأربعاً بالنهار ، ومنهم من يختم في كل أسبوع ختمة ، وفي كل شهر ، على اختلاف الهمم والمَوَاطن.

عقدوا له الحزوب والحلقات ، ووقفوا على إحيائها ريعاً وصدقاتٍ ، وشادوا لتعليمه معاهدَ ومعالمَ ، وجعلوا لختمه أعياداً ومواسمَ . وتنافسوا في كتابته بالخط البديع قبل أن توجد آلة الطباعة ، ولما وجدت تسارع المحسنون إلى طبعه ، فخرجت مصاحف من الأستانة ومصر بالطبع الجميل والورق الصقيل في غاية الضبط والإتقان ، وحذتها الجهات الإسلامية وفي مقدمتها « المغرب » ومسلمة الهند وباكستان ، ووافتنا الأخيرة بمصاحف تسر الناظرين طبعاً وضبطاً وأناقة ، وعلى الله جزاؤهم بما عظَّموا من حرمة كتابه ، وعمموا نشره في كل إقليم ، محاط بسياج من التعزيز والتكريم ، في كتاب مكنونٍ لا يمسه إلَّا المطهرون ، مصان عن الابتذال والامتهان ،

لا يُلقىٰ بين أكداس الكتب ولا يُرمىٰ في السلات والطرق ولا يُمَكَّنُ منه كافرٌ ولا زنديقٌ .

وطالما أشكل عليَّ وأهمّني رسمُ آياتٍ في الجرائد والنشرات المعرَّضة للنبذ والتمزيق ودوس الأقدام ولفّ الأطعمة والأفاويه[1] . . وفي ذلك من الامتهان وإساءة الأدب ما لا يخفى . وقد نصَّ الفقهاء على حرمة ذلك ، وإفضاء المتعمد بذلك الفعل إلى حكم المستخف بالقرآن والدين ؛ ولله غَيرة على حرماته .

* * *

(١) الأفاويه : البهارات .

٤٣ ـ أقسام الذكر

وهي ثلاثة : **ذكربالقلب** ، **وذكر باللسان** ، **وذكر بهما معاً** وهو الأفضل . وللناس في المقصد بالذكر مقامان : فمقصد العامة اكتساب الأجور ، ومقصد الخاصة القرب والحضور ، وما بين المقامين بون بعيد ، فكم بين من يأخذ الأجر وهو من وراء الحجاب وبين من يقرب حتى يكون من خواص الأحباب .

وقد نوَّع الله الذّكر أنواعاً حَسَبما يقتضيه جلاله وجماله ، ويكمل به مقام العبد وحاله ، ويتنزَّه به في حدائق المعرفة المتنوعة في المشاهد ، ويتخلى عن السآمة التي تلازم الوقوف عند حدٍّ واحد . فمنها التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد والحوقلة والحسبلة ، وذكر كل اسْمٍ من أسمائه تعالى ، والصلاة على النبي ﷺ ، والاستغفار . ولكل ذكر خاصيته وثمرته :

فالتسبيح : هو التقديس والتنزيه واعتقاد تَعَالِي الحق جل

وعلا وتنزهه عن مشابهة المخلوقين ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ، عما يوهم نقصاً في علوه وكماله . وثمرته صفاء التوحيد عن الشوائب ، وامتلاءُ القلب بعظمة الله وتفرُّده بكل كمال ، وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض .

والتهليل : ثمرته تجديد التوحيد والإيمان الخاص ، فإن التوحيد العام حاصل لكل مؤمن .

والتكبير : ثمرته التعظيم والإجلال لذي الجلال .

وأما **الحمد والأسماء** التي معناها الإحسان والرحمة ، كالرحيم والرحمن والكريم والغفار وما أشبهها : فثمرتها ثلاث مقامات وهي : الشكر ، وقوة الرجاء ، والمحبة ، فإن المحسن محبوب لا محالة .

وأما **الحوقلة والحسبلة** : فثمرتهما التوكل على الله ، والتفويض إلى الله ، والثقة بالله .

وأما **الأسماء** التي معناها العلم والإطلاع ، كالعليم والسميع والبصير والقريب والشهيد : فثمرتها المراقبة .

وأما **الصلاة** على النبي صلى الله عيه وآله وسلم : فثمرتها شدة المحبة له ، والقربُ من جنابه ، والمحافظة على اتباع سُنَّته .

وأما **الاستغفار** : فثمرته الاستقامة على التقوى ، والمحافظة على شروط التوبة ، والتنصل من حبائل المعصية .

فإن أردت أن تفوز بكل الثمرات وتنزل أعلى الدرجات : فابحث عن ورد جامع لتلك الأذكار والدعوات ، ولا تفقدها في أوراد سيدي الإمام **عبد الله بن علوي الحداد** ، من ورده اللطيف ، فالكبير ، فالراتب ، وحزبي الفتح ، والنصر له ، وراتبِ الحبيب الإمام **عمر بن عبد الرحمن العطاس** ، وأوراد الإمام **أبي الحسن الشاذلي** والإمام **النووي** وما في الأذكار له ، والحصن الحصين للإمام **ابن الجزري** ، والحزب الأكبر **لملاّ علي القاري** . وغيرها من الحزوب النافعة المنتشرة ـ بحمد الله ـ في الأمة .

وأُتْحِفُ مطالع رسالتي هذه بفائدة تلقيتها من بعض الأكابر في ذكر « سبحان الله وبحمده » قال : [إن استشعار معنى « وبحمده » يُدْخِل الذَّاكرَ فضاءً واسعاً من المعرفة يدري به سر المضاعفة ونمو الأعمال وبركتها . ذلك أن الضمير في « وبحمده » يعود على الله جل وعلا ، فإذا قلت : « سبحان الله وبحمده » عنيت : (أسبحه بحمده هو لنفسه) وحمده لنفسه قديم بقدمه ، دائم بديمومته ، لا منتهى لعدِّه ، ولا غاية

لحصره ، فتحمده بما حمد به نفسه لا بحمدك أنت] .

وكذلك في الصلاة على النبي ﷺ تطلب من الله أن يصلي على نبيه بصلاته هو التي صلاَّها عليه ، صلاة دائمة بدوامه ، باقية ببقائه ، لا منتهى لها دون علمه ، فإن ثوابها لا ينتهي ولا تحصره غاية .

والعمدة في الذّكْر والدعاء على الحضور والاستجماع واستشعار معاني ما يذكر أو يدعو به ، فهناك لذة الجَنَىٰ وبرقة السنا .

ومن رسالة المريد لسيدي الإمام الحبيب عبد الله بن علوي الحداد ، قال : [من سره أن يذوق شيئاً من أسرار الطريقة ، ويكاشَف بأنوار الحقيقة ، فليعكف على الذكر لله بقلب حاضر ، وأدب وافر ، وإقبال صادق ، وتوجه خارق ، فما اجتمعت هذه المعاني في شخص إلا كُوشِفَ بالملكوت الأعلى ، وطالعت روحُه حقائقَ العالم الأصْفَىٰ ، وشاهدت عينُ سِرِّه الجمالَ الأقدسَ الأسمى] .

وله من قصيدة :

وإن رُمْـتَ أن تحظَـى بقلـبٍ منـوَّر
نقيٍّ عن الأغيار فاعْكُفْ على الذِّكْرِ

وثابِرْ عليهِ في الظَّلام وفي الضِّيَا
وفـي كـلِّ حـالٍ بـالِّلسـانِ وبـالسـرِّ

فــإنــكَ إنْ لازَمْتَــهُ بتــوجُّــهٍ
بدا لك نورٌ ليسَ كالشَّمسِ والبَدْرِ

ولكنَّــــه نــــورٌ مِـــنَ الله وارد
أتى ذكرُهُ في سورةِ النُّور فاستَقْرِ

وليحذر الذاكر من الغفلة عن الدعاء ، فقد ورد في الحديث : « إن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل »[1] وكيف يذوق ما لا يتعقل ، أو يدرك ما لا يتأمل ؟

ومن امْتَلأ قلبه بصور المحسوسات، لو قال: لا إلـه إلا الله، ألف مرة ، فقلما يشعر قلبه بمعناها . وإذا فرَّغ القلب عن غير الله لو قالها مرة واحدة ، فإنه يجد من اللذة ما لا يستطيع اللسان وصفه . وعن الحسن البصري : « تفقَّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، والذكر ، وقراءة القرآن، فإن وجدتم فالحمد لله، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق » وما انغلاقه إلا من مرض أو غفلة ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤]

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٤٠١) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

٤٤ ـ ذكر العارفين

وحيث كان الذِّكر بتلك المنزلة العلية والرتبة السنية ، تمسَّك به الأَلِبَّاءُ المُوَفَّقون ، وتفنَّنوا فيه وعكفوا عليه واتخذوه إلى المحبوب طريقاً ، وأكثروا من اللهج به دواماً بألسنتهم وقلوبهم ، وترنَّمُوا به قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم . فكان الصدِّيق رضي الله عنه يُخَلِّل كلامه بلا إلـٰه إلا الله . وكان بلال يقول : (أحدٌ أحَدٌ) عندما كانت قريش تعذبه ، تَرَوُّحاً باسْمِ مولاه الأحد .

وإنما جعل التهليل أفضل الذكر لما له من التأثير في تطهير الباطن من الأوصاف الذميمة التي هي معبودة في الظاهر ، قال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان : ٤٣] فيفيد نفي عموم الألوهية بقوله : لا إلـٰه ، وإثبات الوحدانية بقوله : إلا الله ، كما سبق في مطلب أثر التوحيد وكلمته المشرفة بهذه الرسالة .

ويعود الذكر من ظاهر اللسان إلى باطن الجنان ، فيتمكن

فيه ويستولي على جوارحه ، ويجد حلاوة هذا مَنْ ذاق وأقبل على الذكر بكليته فَلاَنَ جلده وقلبه ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

فأما لين القلب : فهو الرقة والخشية التي تنازله من ثمرة القرب والتجلي ، وحسبك من كان الله أنيسَه وجليسَه .

وأما لين الجلود : فهو التواجد والاهتزاز من الأنس والجلوة ، أو الخوف والخشية ، فلا حرج ولا ملام على من بلغ إلى هذا المقام أن يترنَّح ويترنَّم فله من لاعج الحب[1] والشوق ما يشجي ويريح ، ويثير الهيام والتباريح[2] ، كما قال ناظمهم :

وإذا ذكرتُكُمْ أميلُ كأنَّني   مِنْ طِيبِ ذِكْرِكُمْ سُقِيْتُ الرَّاحَا

ومن زاجر الخوف والخشية ما يذرف الدموع ويوجب الوجل والخشوع . فهذه صفة المؤمنين الأبرار عند سماع كلام الله تعالى وذكره ، تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكره ، تعلوهم السكينة والوقار ، فلم يكونوا لاهين

---

(١) لَاعِجُ الحبِّ : اشتداد ألم الحب .
(٢) تباريح الشوق : توهجه .

ولا متصنعين ولا متصارخين ولا متكلِّفين بما ليس فيهم ، ولم يصفهم الله تعالى بذهاب عقولهم والغشيان عليهم والتكسر والوثب . وفي حالة نادرة قد يستولي سلطان الوجد على الذاكر فيأخذه عن نفسه وهي من حالات الهيام ، تُسَلَّم لأربابها ولا يقتدىٰ بها .

ونقل هنا في ذم الخروج عن الأدب حالة الذكر ما قاله الحبيب أبو بكر العيدروس من قصيدة ، إذ يقول :

زَعَمَ الخشوعَ والجوارحُ تضطربْ
والوجد حركات وساعات تثبْ
الكلُّ يفعل مثل هذا إن طَرِبْ
فتعادل الضِّدان من جِدْ أو لَعِبْ
والله لو حلَّ الخشوع بقلبه
ظهرت سكينتُه وذلَّ لربه
أجرى الدموعَ مخافةً من ربِّه
ورعَىٰ من الأدب الحقيقي ما يجبْ
أعمالُهم تَقوى مع الأدبِ الكثير
سَهُلَ اليسيرُ عليكَ واعتاص العسير

فتــركتَــهُ ، وتبعتَهُــم فــي ذا اليسيــر
شتــان مــا بيــن الحقيقــةِ والكــذبْ

ويؤيده قوله ﷺ في ذلك الرجل الذي كان يعبث بلحيته في صلاته : « لو خشع قلبُ هذا . . لخشعت جوارحُهُ »[1] .

* * *

(١) رواه الحكيم الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

٤٥ ـ إنشاد الشعر أثناء الذكر

ولا بأس بهِزَّة الذكر وإنشاد الشِّعر ، وتحسين الأنغام ، ونشر الأعلام ، في حضرة الذكر لأهل الوجد والأدب . فإن هناك جمعُ شملِهم ، وهناك يُغفَر لهم كما مر في الحديث : « أشهدكم أني قد غفرت لهم » . وإذا كانوا هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، فكيف مكانتهم هم .

وقد روى الترمذي من حديث جابر بن سمرة ، وصحَّحه : أنَّ النبي ﷺ كان يُحْدَىٰ له في السفر وأن أنجشة الحبشي كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال ، فقال رسول الله ﷺ لأنجشة : « رويدك سوقك بالقوارير »[1] .

ولا يخفى أن النغمات الموزونة تهز القلوب الجامدة ، وتحرك النفوس الخامدة وأن لها أثراً في تلطيف الأخلاق

---

(١) رواه الترمذي ، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه .

والأذواق ، فهي التي تحيل الجبان شجاعاً ، واللَّكزَ الشحيحَ جواداً ، وتخفف عن المحزون كربه ، وعن المصاب خَطْبه .

ولقد عَرَف الصوفيةُ ما للسماع من أثر في النفوس فاتخذوا منه وسيلة لتهذيبها ، والدعوة إلى الفضيلة ، والتذكير بالأوطان ، نشيداً يذكرها بمحبوبها الأول ونداثه الأجمل في عالم الذر والإشهاد . ومما يعبر عن ذلك ما يروى عن الإمام حجة الإسلام « الغزالي » من قوله :

تركتُ هوى سُعدى وليلى بمَعْزِلِ
وصـرتُ إلـى مصحـوب أوَّلِ منـزلِ
ونــادتنِــيَ الأشــواق مهــلاً فهــذه
منـازل مَـنْ تَهْـوَى رويـدكَ فـانْـزلِ

فلا بِدْعَ إن رَوَّقت به حفلاتها وترنَّمت به في أعيادها ومواسمها وأنديتها كوسيلة للحضور ، وكأس تلك المعاني على الحاضرين تدور ، وللوسائل حكم المقاصد .

وبحسن النغم تطيب تلاوة القرآن ، وقد أُمِرْنا بذلك . قال ﷺ : « زَيِّنُوا القرآن بأصواتِكُم »[1] أي تلاوته بتحسين

---

(١) رواه النسائي (١٠٠٥) .

أصواتكم . واستمع ﷺ إلى قراءة أبي موسى الأشعري ، فقال : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود »[1] فبلغ ذلك أبا موسى ، فقال : (يا رسول الله ، لو علمت أنك تسمع لحبَّرته تحبيراً) وكان ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً يقوم عليه في المسجد ، يفاخر عن رسول الله ﷺ ، أو ينافح ، ويقول : « إن الله يؤيد حسانَ بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم »[2] وذلك بالشِّعر في المسجد .

فانظر أين بلغت مكانة الشاعر المنافح عن الدين والمُظهِر لمزايا سيد المرسلين ، فلم يقصر عن الخطيب الداعي المرشد في استوائهما على منبر الدعوة والمنافحة عن الدين وإرغام أعدائه .

وقد كان ﷺ ينقل اللِّبِن مع أصحابه في بناء مسجده ويقول :

هذا الحِمالُ لا حِمالُ خَيْبَرْ   هـــذا أبـــرُّ ربَّنـــا وأَطْهَـــرْ[3]

---

(١) رواه مسلم (١٣٢٢) .

(٢) رواه أبو داود (٤٣٦١) ، عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) أي هذا الذي نحمله من اللِّبِن أبر وأطهر يا ربنا مما يُحمل من خيبر من نحو التمر والزبيب .

ولعل المقصد من ذلك تنشيط الهمم للعمل المبرور ، والسعي المشكور بالقول الحسن والنغم الحسن شعراً ونثراً . والإعانةُ على جهاد النفس ، الذي هو الجهاد الأكبر ، وتشويقها إلى السباق والتنافس في ذلك المضمار . لمثل هذا فليعمل العاملون .

وكان ﷺ يعقد الأَلْوِيَةَ لبعض أصحابه ، ويجيز إنشاد الشعر بين الصَّفين ، والتبختر في المشية ويقول : « إنها لمشية يُبغِضها الله إلا في مثل هذا الموضع »[1] ، أي موضع الجهاد في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا .

ولا يبعد أن يكون الاجتماع بالأدب والتواضع على الذكر ، بشعار أهل الطريقة ، والدعوة إليه ، وتبادل كؤوس الحب في الله ، والاجتماع عليه ، من أسباب إعلاء كلمة الله ، ونشرها في المدن والبوادي ، على حد ما قيل :

فَنَادِمْني بمثْلِ لسانِ حَالي تُروِّحْني وأطربُ مِنْ قريبِ

* * *

---

(١) قاله ﷺ لأبي دُجانة ، رضي الله عنه ، يوم « أُحُد » ، كما رواه أصحاب السِّير ، ورواه الطبراني في « الكبير » .

٤٦ ـ المقصود من « الطريقة » ومنهج أهلها

وذلك لأن المقصود الأصلي من الطريقة مجاهدة النفس ، وتزكيتها بالأخلاق المرضية ، وإلزامها بالشريعة المحمدية في الباطن والظاهر ، على نهج السلف الصالح . وذلك هو التصوف المقتبس من قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ ـ ١٥] . والنفوس بمقتضى رعونتها وغلوائها ، لا تخضع إلا لسلطان قاهر أو برهان ظاهر أو حكيم ماهر .

وقد اخْتَفَى سلطان الحق والهدى منذ أزمان حينما افْترق السلطان والقرآن كما أخبر به الصادق المصدوق ، وخلفت دولة الأَثَرة والاستبداد ، فاطَّرحت الدين جانباً ، وذهبت وراء أغراضها وتمكين نفوذها وجبروتها . وعَشَتِ البصائر عن استجلاء البراهينَ الشرْعيَّة لما غَلَب عليها من الأهواء والحظوظ النفسية ، وتطاوُلِ الأمد وبُعْدِ العهد عن قرون الهدى والخير ، فقيَّض الله لحفظ دينه من كل جيل طائفةً لا تزال

قائمة على الحق ، لا يضرها من ناوأها حتى يأتي أمر الله . وليست هي إلا الطائفة المحتفظة بكتابها وسنّتها ومنهاج سلفها . أخذت نحو دعوة الكتاب والسنَّة ، فاستقلَّت بهما ، وعملت بأحكامهما ، ودعت النفوس الجامحة إليهما بأساليب اللطف والحكمة ، والتقريب والاستمالة بما تصبو إليه النفوس من متعها المباحة ودواعي سرورها وانشراحها ، كالسماع والحضْرات ومحافل الذكر الصالحات ، وسائر الأحوال التي من شأنها أن تعين على تهذيب النفوس ، وتمرينها على الأخلاق السامية والعوائد الحسنة .

وعلى هذا النهج دَرَج أدِلّاءُ الطريق وأعيانٌ من دعاة الأمة المحمدية ، وتغلغلوا في الأصقاع النائية عن شعائر الإسلام والمجاهل التي يقل وصول الدعاة إليها إلَّا مَنْ بذل نفسه لله ، وتجشم المشاق في بلوغ تلك الغاية - التي يتهيَّبها المُتْرَفون - مُبلِّغاً عن نبيِّه الذي قال : « بلِّغُوا عَنِّي ولو آيةً »[1] منضوياً في غمار تلك الطائفة المرضية من خيار الأمة المحمدية :

أُولئِكَ أَبْدَالُ النَبِيِّينَ أبرزوا   لفَضْلِ رَسُولِ الله فِي خَيرِ مِلَّةِ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٢) والترمذي (٢٥٩٣) عن ابن عمرو رضي الله عنهما .

فعلى ذلك النهج السّديد كان إرشادهم ، وتربيتهم لتلاميذهم ، والمنتمين إليهم .

* * *

٤٧ ـ فضلُ الشَّيخِ المربي وصِفَتُه

ومن هذه الحيثية تبدو مزية الأخذ عن المشايخ وأن من لا شيخ له يرشده كالتائه في الطريق .

قال ﷺ : « خذوا عني مناسككم »(١) وقال ﷺ : « صَلُّوا كما رأيتموني أُصَلّي »(٢) . قال بعض العارفين : (وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتّباع ، ويكشف عن قلبه القناع . . فهو في هذا الشرع لقيط لا أب له ، دَعِيٌّ لا نسب له) كيف وسبيل السلوك والتزكي غامض وسبل الشيطان كثيرة .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : [خطَّ رسول الله ﷺ خَطَّاً بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » وخطَّ عن يمينه وشماله خطوطاً ، ثم قال :

---

(١) رواه النسائي ، عن جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٥٩٥) عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه .

« هذه السُّبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] »][١] .

فمن لم يكن له شيخ يهديه قادَهُ الشيطان لا محالة إلى طريقه ، ومن سلك البوادي المهلكة بنفسه من غير دليل خَاطَرَ بنفسه وأهلكها . والمستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجفُّ على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر .

ولله درُّ من قال :

يظنُّ المَرْءُ أن الكُتُبَ تُجْدي | أَخَـا فَهْـمٍ لإدْرَاكِ العلُـوم
وَمَا يَدْري الجَهولُ بأنَّ فيهَا | غوامضَ حيَّرَتْ عقلَ الفَهيمِ
إذَا رُمْتَ العلومَ بغيرِ شيْخٍ | ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ
وتَلْتَبِسُ الأمورُ عليكَ حتّى | تَصيرَ أَضَلَّ مِنْ تُوما الحَكيمِ[٢]

وفي القرآن ما يشير إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] أي ندعو كل قوم بمن يأتمُّون به ؛ فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء وورثتهم من العلماء ، وأهل

---

(١) رواه أحمد (٤٢٠٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) توما الحكيم : كناية عن الحمار .

الكفر ائتموا بأئمتهم من الضُّلّال ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص : ٤١] وفي « الصحيحين » « لتتبعْ كلُّ أمةٍ ما كانت تَعْبُد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيتَ » ، وفاز من كان متبوعُه الرسولَ الأعظم وحزبُه الكرام أئمةَ الهدى ، رجالَ الله وخلفاءَه في أرضه من عباده ، الذين قال في وصفهم الإمام عليّ كرم الله وجهه : [أولئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يدفع الله عن خلقه ، حجته في أرضه حتى يؤدُّوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلَّقة بالنظر الأعلى ، أولئك خلفاء الله تعالى في بلاده ، هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم] .

فهؤلاء هم الحكماء الماهرون أيَّدهم الله بروح منه ، فداوَوا بالحكمة أمراض القلوب ، وصبُّوا الإرشاد في قوالب من المباح المرغوب ، ليوصِلوا العامة من طريق هواهم إلى الحق المطلوب ، فإذا هم في حزب الله من حيث لا يظنون ، ومن أَحَبَّ قوماً فهو منهم . فلا جرم كان الدين محفوظاً بهذه

الطائفة المعنية وبمن انْتمى إليها واحْتذىٰ بها في نشر أعلام الدعوة وإعلاء كلمة الحق في أكناف البلاد ، على ما في الوقت من تنكُّر وفساد ، وفجور وإلحاد ، تفشَّى في كل قُطْرٍ ونادٍ ، وسكوت وإِعراض من أُولِي العلم وولاة الحكم يفتِّتُ الأكباد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولعلَّك تصبو إلى أن تعرف وصف الشيخ المطلوب الأخذ عنه ، المنوَّه بذكره آنفاً .

فهو في اللغة الهَرِم والذي استبان فيه الشَّيب .

وفي العرف العام العاقل المحنَّك ، ومنه شيخ البلد ، وشيخ القبيلة .

وفي العرف الخاص ، هو الراسخ في علوم الشَّرع الثلاثة :

الإيمان الذي هو مادة علم التوحيد وأصول الدين .

والإسلام الذي هو مادة علم الفقه والشريعة .

والإحسان الذي هو مادة علم الحقيقة ، وهو المطلوب في السلوك والطريقة .

ويمتاز شيخ التربية والتخريج ببلوغه الحد الذي مَنْ بلغه كان عالماً مربِّياً ربَّانياً مهذِّباً مرشداً إلى طريق الحق ، ولو كان

شاباً ، فهو طبيب الأرواح ، الشافي بما عَلَّمه الله من أدويةِ أَدْوَاءِهَا المُردية .

وفي اصطلاح المحدِّثين : الشيخ هو من أحاط علماً بمئة ألف حديث متناً وإسناداً .

ومن تعاريفهم للشيخ : (هو من علَّمكَ بِقَالِهِ وأنهضَكَ بِحالِه) (من أفاد الطالب ، وفتح المطالب) (الكامل في ذاته المكمِّل لغيره) .

وإنما يؤخذ كُلُّ فن عن أربابه ، فلا يعتمد صوفي في الفقه إلا أن يعرف إتقانه له وقيامه عليه ، ولا فقيه في التصوف إلا أن يعرف بحقيقته به وقيامه عليه ، ولا محدث فيهما إلا أن يعرف قيامه بهما . ومن تكلَّم في غير فنِّه أتى بالعجائب .

وإن نَنْحُ باللائمة يوماً على كثير من العلماء والأعيان ومن يليهم من طلاب العلم على سكوتهم العميق وإعراضهم الفاحش عن نشر الدعوة العامة وتبليغها إلى أنحاء المعمورة لكل من يمكن تبليغها إليه بسائر الوسائل الممكنة كما هو مطوَّق بأعناقهم ، ومحتَّم عليهم ، ومأخوذ عليهم به العهد والميثاق ، فلا ينبغي لنا أن نلوم ونثرِّب من ينتدب للدعوة من المنتمين إلى أحد المشايخ الدعاة ، أولِي الطرائق السديدة

والخلائق المحمودة ، ويجمع العامة على ما يقرِّبهم إلى الله ورسوله وصالحي عباده ، وينقلهم من غيابات غيبتهم العميقة ومهاوي دنياهم السحيقة إلى منجاة من أَمَنة الذكر وحصنه الحصين ، المشار إليه بحديث : « الدنيا ملعونةٌ ، ملْعُونُ ما فيها إلا ذِكر اللهِ وما والاه وعالمٌ أو متعلمٌ »[1] . ولا ينبغي أن ننبزه بالبدعة والخرافة ، وكيف نرميه بهذا وهو يدعو الغافلين إلى ذكر الله تعالى والرجوع إليه ، تحت لواء الألفة الدينية ، والأخوَّة الإيمانية ، على بساط الود والمحبة في الله ؟ بل الحق أن نقلّده وسام الشكر على ما قام به أولًا من أعباء الدعوة الإسلامية ، وما كفانا ثانياً من تبعة الحرج والمسؤولية ، ثم متى رأينا في سلوكه اعوجاجاً أو خروجاً عن الجادة ، نرشده بلطف وبصيرة إلى ما تطلبه منه وظيفة الدعوة والذكر من سلوك وآداب ، ونقول له قولًا معروفاً ، فإنه مهما نال من علوِّ الجاه خاضعٌ تحت نيِّر الشريعةِ والآداب النبويّة .

وليتَ شِعْري ، لو راعى مشايخ الطريق اليوم آدابَ الذِّكْر والطريق ، وأخذوا بها أتبَاعَهم وجمعوا على تنوعها أوزاعَهم ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٤٤) وابن ماجة (٤١٠٢) ، عن أبي هريرة .

لكانت لهم عوناً على السلوك والوصول إلى حضرة ملك الملوك ، عطيةً باردة بلا إراقة دماء ، ولا خشية سلطان ، ولا خوض معارك ، ولكنهم ـ لا أقول كلهم ، ولكن غير المهذبين منهم ـ ويا للأسف ! اقتصروا على الرسوم والأوضاع الظاهرية ، وشوَّهوا معالم « الطريقة السَّنية » ، فأمكنوا لصوص الانتقاد ، وسُوْسَ الاعتقاد من الحطِّ من مقامهم العالي ، وفتحوا لهم ثغرة بما صاروا إليه من تفَرُّقٍ وتحَزُّبٍ لا يجمعهم على الغرض المقصود ، وغلُوٍّ في الاعتقاد وتعداد لمفاخر لا مساس له بالمطلب المقصود ، فعلى أنفسهم جَنَوا ، وإلى ذمهم دَعَوا ، والطريقة بريئة من تلك النِّسْبَتَيْنِ :

قد تُنكرُ العينُ ضوءَ الشَّمس من رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

* * *

٤٨ ـ وجوب النصيحة لكل مسلم

فإلى مشايخ الطرائق أوجِّه كلمة النصح في توجيه أتباعهم إلى منهج الرشد ، والتأليف بين الأتباع من كل طريقة ، وتوحيد مرماهم لإعلاء كلمة الحق ، وإملاء مناشير الذكر بين الخلق !

ولنا بحمد الله ، في وازع الائتمار وترياق النصيحة ، ما يليِّن الشديد ، ويقرب البعيد ويأسو الجراح ، وعلى ذلك يدور الشأن ، وتقوم الأركان .

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، قال : (بايعت رسول الله ﷺ ، على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)[١] .

وقال ﷺ : « الدين النصيحة »[٢] يكررها ثلاثاً . قلنا :

---

(١) رواه البخاري (٥٥) ومسلم (٨٣) .

(٢) رواه مسلم (٨٢) عن تميم الداري رضي الله عنه .

لمن يا رسول لله ؟ قال ﷺ : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ، وذلك منهج الأنبياء وديدنهم . قال تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٢] وعن هود : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨] . وقال تعالى لخير أنبيائه : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ومن المعلوم أنَّ بذل النصح واجب ، وقبوله واجب ومن أهم حقوق لا إلـه إلا الله . فلا مناص لمسلم عنهما ، ولا يعذر في السكوت متى رأى منكراً ، بل عليه أن يغيِّره ويدفعه بإحدى المراتب الثلاث الواردة في حديث : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع . . فبلسانه ، فإن لم يستطع . . فبقلبه ؛ وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فالمرتبة **الأولى** : وهي التغيير باليد لا يستطيعها غالباً إلا أرباب الولايات والمناصب والمأذونُ له ـ من قِبَل السُّلطان ـ من القُضاةِ والمحتسبين ، ومَن بَذَل نفسَهُ لله .

والثانية : وهي التغيير باللسان ، أي القول ، متيسِّرة لعامة

---

(١) رواه مسلم (٧٠) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

المسلمين ، لكنها على العلماء آكد وأوجب لاطلاعهم على أحكام الله تعالى ، ومعرفتهم بوجوه الكلام وكيفية الردع والزجر بالمواعظ والحِكَم . ويتأتَّى لهم ذلك على وجه العموم في المحافل والدروس والخطب ، وفي الحديث : « ما آتى اللهُ عالماً عِلماً إلا وأخذَ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيّين أن يبيِّنوه للناس ولا يكتموه »[1] ، ولا يقصر عن هذه الرتبة إلا جاهل متخبط ، أو عالم مفرط .

والثالثة : وهي التغيير والإنكار بالقلب ، بأن يكرهه بالقلب ولا يرضى به ، ويبتهل إلى الله في إزالته ، وظيفة العاجز عن التغيير باليد واللسان ؛ لأن الرَّاضي بالذَّنب شريكٌ فيه ، وإن كان بالشَّرق وفاعِلُه بالغرب ، و[كذلك] من يخشى حدوث فتنة أو شدةِ أذًى أو تمادِيَ إصرارٍ على ذلك المنكر إذا أعلن بإنكاره كما هو مقرَّر في كتب العلماء .

ولعمري إن زماننا هذا هو الزمان الذي لجأ كثير من العلماء فيه إلى السكوت والمواربة ، فلا إنكار ولا غَيرة ، تعلّلوا بما لا يقوم به عذر ، ولا تبرأ لهم به ذمة ، فما بالهم

---

(١) رواه أبو نعيم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

يهبُّون لما فيه حظٌ للنفوس وحظٌ للفلوس ، فهلاّ كان ذلك في نُصْرَة الدين وحفظ شريعة سيد المرسلين ؟ ولله دَرُّ الشيخ الفقيه الأديب ، **أحمد بن عمر باذيب الحضرمي** ، حيث يقول من قصيدةٍ :

فيا أُولِي العلم لا نِلْتُمْ فوائدَه ... إن لم يكُن علمُكم لله مبذولا

إلى متى ذا التَّوانِي عن مظاهرة ... تحلُّ كربةَ هذا الدِّينِ تحليلا

قوموا لنُصْرَتِه جداً فنصرتُه ... بِكُمْ ومنكُمْ فلاَ تأْتوا التعَاليلا

وإن قاصمة الظهر ـ التي لا يسعها بساط العذر ـ هي إغضاء كثير من أُولي الفضل عما هو واقع في بيوتهم وأسرهم من المساوي ، والتملصِ من آداب الإسلام الرفيعة وأسواره المنيعة ، جرياً مع التيار العصري ، فكان سكوتهم عن ذلك أسوأ مثل ، وسلاحاً لمن خالف أو زلَّ ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

* * *

٤٩ ـ فتنةُ الملاحِدَة

بل وقع في الشّباك ما هو أدهى وأمرُّ ، وهو انصياع جماعة من المتَسَمِّين بالإسلام لآراء الملاحدة واستحسانهم لها ، واطِّراحهم الدين جملة واحدة بزعم أن أحكامه قد تداعى اعتبارها وانتسخت أخبارها ، وأصبحت لا تتفق مع مدنية العصر ، ولا حاجة لكُتُبه العتيقة الصفراء .

هكذا سمعنا وهكذا قرأنا في مقالاتهم ببعض الصحف ؛ فبأي معنى نفسر كلامهم ؟ لا شك أنهم قد مرقوا به عن الإسلام ، وألحدوا به في دين الله ، وسلكوا غير سبيل المؤمنين من الكفار والملحدين ، وآثروا الأهواء النفسية والنحل الإلحادية والشهوات الدنيوية ، واستحلوا المنازع الإباحية ، وداجوا[1] دعاة المارقين ، ولن ينفعهم ما يتسَمَّون به من الإسلام لارتدادهم عنه بما زعموا ، ولن يغني عنهم

---

(١) داجوا : خدموا وعاونوا ، من « داجَّ » و « داجَ » بتشديد الجيم أو تسهيلها مع فتحها .

أولئك الدعاة الملحدون ـ الذين اقتدوا بهم ـ من عذاب الله من شيء ، وسيسحبُون في النار على وجوههم ، ويقال لهم : ذوقوا مَسَّ سقَر ! قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٥ ـ ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٩] .

والآية الأولى ، وإن نزلت في كفار أهل الكتاب على ما قاله قتادة ، أو في المنافقين على ما قاله الضَحَّاك عن ابن العباس ، إلَّا أنها تسحب ذيلها على كل من ارتدَّ عن الإسلام في أي زمن وحال ، ومنهم هؤلاء المؤتَمُّون بالملحدين .

ولو أن هؤلاء قالوا للملحدين ـ الذين أغروهم وخوَّفوهم ، وحبَّبوا إليهم الكفر والفسوق ، وزيَّنوهما لهم بمختلف وسائل الفتنة والإغراء ـ : ما قال السلف الصالح من المؤمنين لمن فعلوا معهم مثل ذلك ، فيما حكى الله عنهم : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ

﴿ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٤] لاستوثقوا بعروةٍ لا تنفصم وقوة لا تنهزم . وتأمل قوله : ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ كيف زادهم تجمع الأعداء وتخويف المرجفين بسالةً وثباتاً وقوة لا تقف عند حد ، واندفاعاً في نصرة الدين إيماناً بما وعدهم الله من النصر ، إذ يقول : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لله مُحْتَسِبٍ
يَسْطُو[١] بِمُسْتَأْصِلٍ للكُفْرِ مُصْطَلِمِ[٢]

حتَّى غَدَتْ ملَّةُ الإسْلامِ وَهِيَ بِهِمْ
مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

هُمُ الجبالُ فَسَلْ عنهم مُصَادِمَهُمْ
مَاذا رَأى مِنهُمُ فِي كلِّ مُصْطَدمِ

تُهْدى إليكَ رياحُ النَّصرِ نَشْرَهُمُ
فتحْسَبُ الزهرَ في الأكمامِ[٣] كُلَّ كمي[٤]

---

(١) يسطو : أي يصول .
(٢) الإصطلام : الاستئصال . يقال : اصطلمه أي أهلكه .
(٣) الأكمام : جمع كم ، وهو غلاف الزهرة .
(٤) الكمي : الشجاع الذي كمي جسده بالسلاح أي ستره ، والجمع : كماة .

وقالوا تعبيراً عما امتلأت به جوانحهم من تعزُّزٍ بالله ، واعتصام به واطمئنان إلى وعده ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ كافينا بحسن رعايته ، وتدبيره ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ لمن توكَّل عليه واستند إليه فكافأهم على ذلك أن تولَّى أمرهم وأيَّدهم بنصره وكفاهم شر الأعداء ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ تخفق عليهم راية النصر والكرامة ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ مما أثابهم من فتح وأفاء عليهم من أنفال، كما قال في الآية الثانية: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ مِن الدُّرُوعِ وَعَنْ عالٍ مِنَ الأُطُمِ

* * *

٥٠ ـ الجهاد في سبيل الله وتمَنِّي الشهادة

وهنا مال بنا الاستطراد إلى ذكر الجهاد الذي هو أول أصول الدين وذروة سنامه ، وبه أعزَّ الله الإسلام والمسلمين وأذلَّ الشرك والمشركين ، وهو أعلى أقسام الأمر بالمعروف ، بل رأسه الذي هو التوحيد والإسلام، والنهي عن أفحش المنكرات والآثام الذي هو الكفر والإشراك بالله ، وحكمه الوجوب على الكفاية بالنفس والمال ، ويجب عندما يدهم العدو أرض المسلمين على كل من يطيق الدفاع وعلى من يعيِّنه الإمام .

وأول الجهاد : الدعوة إلى الله والإسلام ، ثم القتال لمن تولَّى وكفر . فينبغي لكل مسلم أن ينوي الجهاد ويحدِّث به نفسه حتى يسلم من الوعيد الوارد في ترك ذلك . قال ﷺ : « من مات ولم يغزُ ولم يُحَدِّث به نفسَهُ . . مات على شُعبةٍ من نفاق »[١] .

وينبغي الإكثار من سؤال الشهادة . قال ﷺ : « من سأل الله الشهادة بصدق . . بلّغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على

---

(١) رواه مسلم (٣٥٣٣) والنسائي (٣٠٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فراشه »[1] .

وفي الخبر : أن « الشهيد يتمنَّى أن يرجع إلى الدنيا لِيُقْتَلَ عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة »[2] .

وورد أيضاً : « تضمَّن الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي ، وإيماناً بي ، وتصديقاً برسلي . . فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه ، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . والذي نفس محمد بيده ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ[3] في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِمَ ؛ لونه لون دم ، وريحه ريح مسك . والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدتُ خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلَّفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأُقْتَل ، ثم أغزو فأُقْتَلُ ، ثم أغزو فأُقْتَلُ »[4] .

---

(١) رواه مسلم (٣٥٣٢) عن سهل بن حنيف رضي الله عنه .
(٢) رواه مسلم ، عن أنس رضي الله عنه .
(٣) يُكْلَمْ : يجرح .
(٤) رواه مسلم (٣٤٨٤) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

هكذا يود ويتمنى سيد الخلق أن يغزو ويُقْتَلَ ويحوز الشهادة ، وهي دون مرتبة النبوة والرسالة ، فيالك من مزية يودها سيد الأنبياء ، فلا نامت أعين الجبناء !

وإنما يطلب مجاهدة الكافرين والمنافقين ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، وقال : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

أما غزو المسلمين وقتالهم بعضهم لبعض على الرياسة والملك وحظوظ الدنيا والعصبية والحمية والقومية والتقدمية والبعثية والرجعية والطائفية ، والاشتراكية ، فهو من أكبر الكبائر وأعظم الجرائم ، ومن أمور الجاهلية ، ولا جاهلية القرن العشرين ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ [النساء : ٩٣] .

وقال ﷺ في خطبة حجة الوداع : « إن الله حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، أنظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

بعضكم رقاب بعض »[1] .

وقال ﷺ : « لَزَوَالُ الدُّنيا أهون عند الله مِن قَتْل رجل مسلم »[2] وقال ﷺ : « لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله بالنار »[3] .

وقال ﷺ : من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة .. لقي الله عز وجل مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمة الله »[4] .

إلى غير ذلك من التهديدات الواردة في هذا الباب . فما عذر مَنْ يستبيح في إخوانه المسلمين هذا القتل .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٥ ـ ٢٠٦] .

فلو أنه صرف هذه القوة في جهاد الكافرين ومغتصبي فلسطين ومَن على شاكلتهم من أعداء الدين الواقفين لنا

---

(١) رواه البخاري (٤٠٥١) ومسلم (٩٩) عن أبي بكر رضي الله عنه . وقد قاله ﷺ بمنًى في حجّة الوداع .

(٢) رواه النسائي (٣٩٢٢) عن ابن عمرو رضي الله عنهما .

(٣) رواه الترمذي (١٣١٨) ، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٤) رواه ابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

بالمرصاد ، والمتألِّبين علينا من كل واد ، لجنى من ذلك ثمرة النصر والأجر والفوز المبين . ولكنها مظاهر الشقاوة والضلال ، تقود أربابها إلى مهاوي السخط والوبال ، وسُبَّة التاريخ والأجيال ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٦] .

ولقد صدق أخي العلاَّمة « **طاهر بن علوي الحداد** » حيث قال من قصيدة :

أترجوا أمةٌ خيراً ومنها | على أبنائها سُلَّ الحُسَامُ
إذا غضِبَت لعِزَّتِها نُفوسٌ | أُعِدَّ لِقَتْلِها المَوْتُ الزُّؤَامُ
وقَالُوا مُسْلِمُونَ وَهُم دواماً | عَلى الإسلامِ حَرْبٌ لَا سَلَامُ

فمن استطاع الجهاد وتمكَّن منه فليجاهدْ وليبادرْ ويُشَمِّرْ ، ولا يتكاسل ولا يقصر . ومن لم يستطع ولم يتمكَّن ، فعليه بحسن النيّة في الجهاد ، وكثرة الدعاء للمجاهدين وإعانتهم بما يقدر عليه . فقد ورد : « من جهَّز غازياً فقد غَزَا ، ومن خلَفَ غازياً في أهله فقد غَزَا »[1] . « ومن أنفق على الغازي ولم يغْزُ فله بكل درهم سبع مئة درهم » .

---

(١) رواه مسلم (٣٥١٢) عن زيد بن خالد رضي الله عنه .

وأحسب أن من هذا الباب تلك التبرعات والإسعافات التي تجمع لإرفاد المجاهدين الذائدين عن حوزة الإسلام ، وحمى أوطانه المقدسة ، كما هو دائر الآن في فلسطين ، والإنفاق على أهليهم وذويهم المشردين ، فحَيَّا اللهُ المحسنين .

وقد أسلفنا في مبحث المجاهدة بهذه الرسالة أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، فهو من أقسام الجهاد التي لا مهادنة فيها ، ما دامت للمرء نفس أمارة بالسوء . كما قال سيدنا يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] وقال نبينا ﷺ : « المجاهد من جاهد هواه[١] والمهاجر من هجر ما نهاه الله عنه »[٢] ، وذلك

---

(١) لم أقع عليه بهذا اللفظ وله شواهد هدفها : « المجاهد من جاهد نفسه في الله » رواه الترمذي وابن حبان ، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنهم . . . « وأفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه » رواه ابن النجار عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه . . . « وأفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله » رواه الديلمي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه . وقد مر حديث : « قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه » رواه الخطيب والديلمي ، عن جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري عن ابن عمرو النسائي وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهم .

لأن الجهاد في المعركة له أوقات محصورة ، وينتهي ولا كذلك جهاد النفس . وكذلك الهجرة في زمنه ﷺ إلى المدينة . فالمجاهد حقاً ما تحمَّل مشقة الأهوال وكفاح الأبطال وفراق الأهل والعيال والمال إلَّا بعد أن انتصر على هواه وذلَّل نفسه لمرضاة الله . والمهاجر حقاً ما تحمَّل مرارة الغُربة واستعذبها إلا بعد أن آثر صحبة رسول الله ﷺ على المقام بوطنه بين عشيرته وأهله بجاذب التوفيق ، والاستجابة لدعوة الحق وصحبة خير فريق .

ومن المعلوم أنه لا بد لجهاد النفس وتذليلها في طريق الحق من أُهْبَة وعُدَّة وأعوان حتى تصل إلى مقام التوحيد وكمال الأنس بقرب الواحد المجيد ، وبدونها لا يحرز الظفر . فالأهبَة والعُدَّة هما جهاز العلم النافع ، والعمل الصالح ، المؤَديين إلى برد اليقين وحقيقة الإيمان . والأعوان هم الأدِلَّاءُ على الطريق والمرشدون إلى معالمها ، الذين يبلِّغون رسالات الله ، الآخذون بأيدي بعضهم بعْضاً في سلوك تلك المهامِهِ وارتقاء تلك المعالي . فهم مصابيح السالكين ، وهداة الحائرين ، وأعلام الطريق وعيُون التحقيق ، كما قال في نعتهم سيدي وشيخي الجهبذ « **علوي بن طاهر الحداد** »

قدَّس الله سره : (سار بهم الواقف ، وتقدَّم بهم الخالف ، وارتدع بحُجَجِهم المخالف ، واهتدى بنورهم الحائر ، وأقبل برؤية جِدِّهم المُعرِضُ الفاترُ ، وكمُلَ بتربيتهم المتخلِّفُ النَّاقِصُ ، وتقدَّم إلى حَلْبَةِ السّباق الكسولُ الناكصُ . تضاعفت أنوارهم بأعمالهم ، وتزكت أحوالُهم بإقبالهم . أنابوا إليه فَهَداهُم واجتَبَاهم ، واستجابوا له ووالَوه فقرَّبَهُم وَوَالَاهُم . قرَّبهم بامتثالهم ، ونوَّرهم بأعمالهم ، وأحبهم وحببهم لإقبالهم ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم : ٩٦] . كاشفهم بأنوار الكشف العالي ، وزيَّن قلوبَهم بنور منه مُتَلَالِيْ ، فكشفوا به عن عيوب النفوس وآفات الأعمال ، وعن المواجيد ومنازل السير ومنازلات الواردات والأحوال ، وأبصروا به من معاني الأسماء والصفات وأنوارها وآثارها وحقائق المعرفة ما لا يبلغه التعريفُ ، ولا تعرب عنه الصفةُ ، ولا يستوفيه التوصيفُ ، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٦] . أحياهم في هذه الدار حياتين : حياة المعرفة والسرور ، والأنس بالله وقرة العين . وآتاهم من الرحمة كِفْلَيْن ، وكتب في قلوبهم الإيمان ، وآتاهم العلم ونور

الفرقان ، وصَلَّى عليهم وملائكته ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وأيَّدهم بروح منه ، فكانوا في الحزب المفلح المنصور ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد : ٢٨] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٩ ـ ٧٠] .

نسأله تعالى ، وهو أكرم مسؤول ، أن يجعلنا من الذين أنعم الله عليهم ، ونظر بعين الرحمة إليهم ، وبلَّغهم كل مُرامٍ ، وختم لهم بحسن الختام .

تمت الرسالة بخير والحمد لله

* * *

تراجم الأعلام

تراجم السادة العلويين المذكورين في الكتاب مُرَتَّبَـةً أبجدِياً

١ ـ الإمام الكبير العارف بالله **أبو بكر بن عبد الله العيدروس** العلوي الحسيني المعروف **بالعدني** . كان من أكابر الرجال وأئمة الدعوة إلى الله . تربى على والده الشيخ **عبد الله بن أبي بكر** المعروف **بالعيدروس الأكبر** ، وهو أول من سُمِّيَ بالعيدروس ، أي الأسد . أجازه والده المذكور في التدريس وهو في الرابعة عشرة من عمره في « تريم » ثم انتقل إلى « عدن » وأقام بها حتى وفاته سنة ٩١٤هـ .

٢ ـ الإمام الكبير العارف بالله الحبيب **أحمد بن حسن العطاس** العلوي الحسيني ، ولد « بحريضة » سنة ١٢٥٧هـ وكان كفيف البصر . طلب العلم بحضرموت ثم رحل إلى « مكة » ولازم شيخ الإسلام السيد **أحمد بن زيني دحلان** . وكان شيخه المذكور يحترمه ويحبه ويقدمه . ثم عاد إلى « حضرموت » حاملاً لواء الدعوة إلى أن توفي « بحريضة » سنة ١٣٣٤هـ ودفن بالقرب من جده الإمام **عمر بن عبد الرحمن العطاس** رضي الله عنهم جميعاً .

٣ ـ الحبيب العارف بالله **أحمد بن محسن الهدار** العلوي الحسيني . ولد بسورابايا في « إندونيسيا » سنة ١٢٧٩هـ . وسافر إلى « حضرموت » حيث طلب العلم ببلدة « عينات » مثوى جده الشيخ

الكبير المعروف « بفخر الوجود » **أبي بكر بن سالم** ، ثم انتقل إلى ثغر « المكلا » حيث توفي سنة ١٣٥٧هـ .

٤ ـ الحبيب العارف بالله **صالح بن علوي جمل الليل** العلوي الحسيني . ولد سنة ١٢٦٩هـ . وعاش في شرق « إفريقيا » داعياً إلى الله . وكان زاهداً عابداً غزير العلم فصيح اللسان . بنى العديد من المساجد وكان المسجد الذي أسَّسه ببلدة « لامو » بكينيا وسمَّاه « رياض الجنة » أول معهد لنشر العلم في شرق « إفريقيا » ومنه تفرَّعت المعاهد والمدارس . توفي رضي الله عنه سنة ١٣٥٤هـ .

٥ ـ الحبيب العلامة **طاهر بن علوي بن طاهر الحداد** . ولد « بقيدون » سنة ١٣٢٨هـ . والتحق برباط العلم بها حتى صار من المدرسين به ، ثم سافر إلى « إندونيسيا » لاستكمال طلب العلم على والده الحبيب **علوي بن طاهر** . عاش في مكة المكرمة فترة من الزمان عمل بها بالتدريس بإحدى المدارس الحكومية ، ثم عاد إلى « ماليزيا » حيث لزم والده الذي كان في هذا الوقت مفتياً لسلطنة جوهور . بعد وفاة الحبيب علوي عاد إلى عدن قاضياً بمحكمة الإستئناف الشرعية وظل بهذه الوظيفة حتى وفاته سنة ١٣٩٤هـ . كان رحمه الله شاعراً بليغاً وكاتباً قديراً وله رسالة في مذهب الإمام المهاجر وأخرى في الرد على القاديانية وديوان شعر لا زال مخطوطاً .

٦ ـ الإمام العارف بالله الحبيب **طاهر بن عمر الحداد** العلوي الحسيني . من ذرية الإمام **عبد الله الحداد** . ولد « بقيدون » سنة ١٢٤٩هـ . وحفظ القرآن وبعض المتون في مختلف الفنون وتَرَبَّى على

أكابر عصره ، ثم تولى إمامَةَ مسجد الشيخ **سعيد بن عيسى العمودي** محتسباً نحواً من أربعين سنة ، وظلَّ معلماً داعياً إلى الله مصلحاً بين الناس عابداً ذاكراً ، حتى توفاه الله سنة ١٣١٩هـ .

٧ ـ السيد العارف بالله الحبيب **عبد الله بن جعفر مدهر العلوي** الحسيني . ولد « بالشِحْر » سنة ١٠٩٣هـ وأخذ عن والده وأخيه ، وعن قطب الإرشاد الإمام **عبد الله الحداد** بالمكاتبة وكذلك أخذ عن الإمامين **أحمد بن زين الحبشي وعمر بن عبد الرحمن البار** بالمكاتبة ولم يجتمع بهما . عاش بمدينة « دلهي » بالهند عشرين عاماً ، ثم هاجر إلى « الحجاز » حيث جلس للتدريس بالمسجد الحرام . توفي « بمكة المكرمة » سنة ١١٦٠هـ وله مؤلفات عِدَّة .

٨ ـ الحبيب العلامة العارف بالله **عبد الله بن طاهر الحداد العلوي** الحسيني . ولد « بقيدون » سنة ١٢٩٦هـ أخذ عن عمِّه الحبيب **صالح** وعن الحبيب **طاهر بن عمر الحداد** وولده العارف بالله الحبيب **محمد بن طاهر** وسافر مع الحبيب **محمد** إلى « الهند » ثم عاد إلى « حضرموت » ولازم الإمام الحبيب **أحمد بن حسن العطاس** . أقام وأخوه الحبيب **علوي** رباط العلم « بقيدون » . وتوفي سنة ١٣٦٧هـ وله مؤلفات وديوان شعر مخطوط .

٩ ـ الإمام قطب الدعوة والإرشاد **عبد الله بن علوي الحداد العلوي** الحسيني . ولد « بتريم » سنة ١٠٤٤هـ وكُفَّ بصره وعمره حوالي الثلاث سنوات . جمع العلوم والمعارف وبلغ رتبة الاجتهاد . دعا إلى الله بلسانه وحاله وبقلمه طيلة حياته ، وقال عنه أعلام وقته : أنه المجدد

للدين في زمانه . له مؤلفات عظيمة مطبوعة ، وديوان شعر أودع فيه أسرار علومه . توفي رضي الله عنه « بتريم » سنة ١١٣٢هـ .

١٠ ـ الحبيب العلاَّمة العارف بالله **علوي بن طاهر الحداد** العلوي الحسيني ، ولد « بقيدون » سنة ١٣٠١هـ ، وطلب العلم ، وأخذ كأخيه عن أكابر وقته ، كالحبيب **صالح بن عبد الله الحداد** ، والحبيب **طاهر بن عمر** ، **والحبيب محمد بن طاهر** ، ثم الحبيب **أحمد بن حسن العطاس** الذي ألف في مناقبه كتاب « **عقود الألماس في مناقب الحبيب أحمد بن حسن العطاس** » . أقام « بقيدون » للتدريس بالرباط الذي أقامه وأخوه **عبد الله** ، تولى وظيفة الإفتاء بسلطنة « جوهور » بماليزيا سنة ١٣٥٣هـ ، وظل بها حتى وفاته سنة ١٣٨٢هـ . له مؤلفات كثيرة قيِّمة .

١١ ـ الحبيب العارف بالله **علوي بن محمد بن طاهر الحداد** العلوي الحسيني . ولد « بقيدون » سنة ١٢٩٩هـ . وبها طلب العلم وتربَّى على جدِّه الحبيب **طاهر بن عمر** ، ووالده الحبيب **محمد بن طاهر** ، وسائر أكابر عصره ، ثم سافر إلى « إندونيسيا » حيث أقام داعياً إلى الله ومعلماً ومصلحاً بين الناس ، حتى وفاته بمدينة « بوقور » سنة ١٣٧٣هـ .

١٢ ـ الحبيب العارف بالله الإمام **علي بن محمد الحبشي** العلوي الحسيني . ولد سنة ١٢٥٩هـ ، وأخذ عن والده مفتي الشافعية بمكة المكرمة الحبيب **محمد بن حسين الحبشي** وغيره من أكابر وقته . له ديوان شعر باللغة العربية الفصحى ، ويسمى في حضرموت « حَكَمِيًّا » ، وآخر من عدة مجلدات باللغة العامية ، ويسمى في حضرموت

« حُمَيْنِيًّا » ، وله وصايا ومكاتبات طبعت حديثاً بسنغافورة ، وله المولد النبوي الشريف المعروف « **بسمط الدُّرر** » . توفي رضي الله عنه « بسيون » سنة ١٣٣٣هـ .

١٣ ـ الحبيب العارف بالله **عمر بن أحمد بن سميط** العلوي الحسيني . ولد « بزنجبار » سنة ١٣٠٣هـ وتربى على أبيه الإمام العلامة أحمد بن أبي بكر بن سميط ، وسافر إلى « حضرموت » في طلب العلم ثم عاد إلى « زنجبار » داعياً إلى الله . تولى القضاء بزنجبار ، وله سفريات عديدة في أنحاء شرق « إفريقيا » و « الحجاز » . توفي « بجزر القُمُر » سنة ١٣٩٦هـ ودفن بجوار جده الحبيب **أبي بكر بن عبد الله بن سميط** .

١٤ ـ الإمام العارف بالله السيد **عمر بن عبد الرحمن العطاس** العلوي الحسيني . وكان كفيف البصر ، متمكناً في العلوم ، قائماً بالدعوة ، متجنباً للشهرة . وكان من شيوخ الإمام **عبد الله الحداد** . توفي سنة ١٠٧٢هـ ودفن بحريضة .

١٥ ـ العارف بالله الحبيب **محمد بن أحمد المحضار** . ولد بحضرموت سنة ١٢٨٠هـ وتربى على والده الإمام العظيم **أحمد بن محمد المحضار** وسائر أكابر وقته من السادة وغيرهم ، ثم سافر إلى « إندونيسيا » وأقام بها حتى وفاته سنة ١٣٤٤هـ . كان رضي الله عنه من أكابر الرجال . ومما قيل عنه أنه كان شبيهاً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في خَلْقِه .

●●●

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *



هذا الكتاب

كلمة «لا إله إلا الله» تحتوي على الإسلام كله، ومنها تنبثق العلوم بأبعادها الثلاثة، علوم الإسلام والإيمان والإحسان، ولذلك فهي بحق «مفتاح الجنة».

وفي هذا المؤلف المبارك يشرح الإمام العارف بالله العلامة الداعية أحمد مشهور بن طه الحداد معاني هذه الكلمة المشرقة، وما تحتويه من علوم التوحيد وحقوقها، وما تقتضيه من كل من آمن ونطق بها، وضرورة إلحاق الشطر الثاني بها وهو قول «محمد رسول الله»، وكيف أن ذلك يجعل كتاب الله الأصل الأول للتشريع، وسنة رسول الله ﷺ الأصل الثاني الذي لا غنى عنه.

ويتطرق المؤلف لكثير من مشكلات العصر من إلحاد، وسوء تأويل للنصوص، وتكفير للمسلمين، وفتنة ترجمة القرآن الحرفية، وكذلك يبين في مباحث ممتعة كيف أنه من كلمة «لا إله إلا الله» نبعت ما يسمى عند القوم بعلوم الذكر والفكر بأنواعها.

فالكتاب يشتمل على أصول للدين لا بد من معرفتها، ويفتح للقارىء من أعماق المعاني الأبواب، حتى يرى أن ما عند الله هو الحق، وما عند الخلق ليس إلا سراب.

د. مصطفى حسن البدوي